محمد كامل الخطيب

الأزمنة الحديثة

سحب وتعديل جمال حتمل
مدونة ابو عبدو



قصص

محمد كامل الخطيب



قصص

منشورات اتحاد الكتاب العرب

دمشق – ١٩٧٤

جميع حقوق الطبع محفوظة

تصميم الغلاف : محمود شاهين

قصص الكتاب



دراسة في الزمن

مقدمة : ثلاثية

١ ـ وجه الموت

١ ـ الخريف الاول

كان يجلس تحت شجرة زيتون ، وكان الفصل خريفا • « لا يهم فالخريف لا يؤثر في أوراق الزيتون » • لكن أوراق شجرة الزيتون سقطت هذا الخريف • ولم ينتبه أحد ، حتى الوحيد الجالس تحت الزيتونة •

٢ ـ الخريف الثاني

كانت الزيتونة عارية ، وكان خريفا أقسى من الأول • ورغم أن الخريف جميل أحيانا ، الا أنه كان

بامكان المتكيء تحت الزيتونة أن يقول : « هذا شتاء وليس خريفا » •

في هذا الخريف سقطت أغصان الزيتونة ولم يبق منها قائما الا الجذع . وبجانبه ـ عند اتصاله بالجذر ـ رجل وحيد ينتظر •

٣ ـ الخريف الثالث

أحرق الرجل أغصان الزيتونة أو باعها واشترى خمراً وسجائر • الجذع مثل عمود لا يسند شيئاً ، ويحدق ببلاهة الى السماء • لم ينتظر الجذع الشتاء ، بل سقط في الخريف ، سقط كجدار حفر تحته • وبعدها مات المستلقي جنب الجذع ، وحيدا مات ، كجذع بلا أغصان وأوراق ، ولم يأت أحد •

••• وارتفعت شاهدة من غير اسم أو تاريخ •

• • •

٢ ـ وجه الحياة

١ ـ الخطوط الحديدية الذاهبة

كان القطار يترك المحطة متمهلا • تعلق شاب باحدى العربات • فتح الباب ودخل • كان ثمة فتاة تجلس • ارتبك الشاب وارتبكت الفتاة أكثر •

حياها • جلس في المقعد المقابل ، وتابع القطار سيره ، كالزمن العابر فوق أرضنا •

٢ ـ الى الزبداني

وصل القطار الزبداني • نزلا من العربة وكان ممسكاً بيدها • تجولا في الشوارع ، ثم في الحقول • أمطرت عليهما وهما يسرقان التفاح وبعدها طلعت الشمس • ذهبا الى عين « النابوع » ودخلا المغارة • قرأ لهـا أشعاراً لسميح القاسم وأراغون ونيرودا ومحمود درويش ، وكانت تضغط يده باستمرار • سرق زهرة من سياج بيت وأهداها لها • قال بأنه يقرأ ، عادة ، كل نهار الجمعة ، وهذه أول مرة يخالف عادته • أجابته بكلام مماثل • عادا الى دمشق في عربة واحدة كذلك لم يتبادلا العناوين ، ولم يتفقا على موعد • وربما تفاهما في الصمت والخجل ان الأمر لا يعـدو المصادفة ، وان المصادفة لا تتكرر وخاصة في الرحلات •

٣ ـ يوم الجمعة التالي

استيقظ في السادسة « كعادته » أمسك كتاباً على أمل أن يقـرأ كل النهار « كعادته » ، وان تعب ،

فسيذهب الى السينما «كعادته» . في السادسة والنصف ألقى الكتاب وتنـاول فطوراً « اليوم جمعـة وكل الاسبوع عمل ، ويجب أن يرتـاح » . في السابعة والنصف كان في محطة الحجاز ، وكانت على الرصيف تنتظره .

. . .

عرف أن اسمها مها ، وعرفت أن اسمه عادل ، وما أروع الزبداني يا ناس .

الأزمنة الحديثة

ـ زمن الشروق

عندما رن منبه الساعة أسكته أحمد المحمود ثم نظر الى ساعة معصمه كأنما يريد التأكد من دقة المنبه • أزاح اللحاف ، و تمتم « الرابعة والنصف » • توجه الى زاوية غرفته الصغيرة وأشعل « الطباخ » . وضع عليه ابريق الشاي ثم خرج الى صنبور السطح ليغسل وجهه . فتح الصنبور « لماذا جفت عيون الماء والآبار في الضيعة •• هل صحيح أن السبب هو كثرة الآبار التي حفرت ؟ » أحس بقبضة تضغط قلبه « عين الرمان • من أين تأتي حليمة بالمـاء هذه

الايام؟ » ازداد ضغط النبضة وتحولت الى أفعى تلتف حول القلب « سنة كاملة منذ رأيت حليمة آخر مرة « لا تنسني يا أحمد » « وكيف أنساك يا حليمة ، سنتزوج عندما أعود » « انتبه على نفسك يا أحمد ، بنات الشام ملعونات » « بنات الشام كثيرات • في هذه البناية وحدها أكثر من عشرين بنتا • » ومر في ذهنه شريط لصور فتيات يراهن كل يوم في الطريق والشرفات وعلى سلم البناية • دخل صوت « الطباخ » سمعه وكأنما أشعل فجأة ، فتذكر أنه قد آن أن يضع الشاي في الماء الساخن •

رشف أول رشفة من فنجان الشاي ، فتذكر يوم ذهب الى بيت حليمة أول مرة بعد أن خطبها • قدمت له الشاي بنفسها بينما أبوها ينقل نظره بينهما ، تحدثوا عن الارض والستاية وبوادر الجفاف « الجفاف • الجفاف ، لماذا جفت الآبار والعيون • غربنا هذا الجفاف • ابن عمي جابر في حلب وابن خالتي مسعود في حماة ، وأنا في الشام وحيد • العمل في الشركة متعب • العمل في الارض أسهل • على الاقل يكون الانسان مع أهله • » وتذكر أهله يوم ودعهم « ادع لي بالتيسير يا والدي » « الله ييسر

لك ويوفقك ، انتبه على حالك • الشام فيها شرور كثيرة • انشاء الله ترجع بعد مدة قريبة • حليمة تنتظرك • » « حليمة تنتظرك وأنا أنتظرك ياحليمة • فتيات الشام كثيرات ولم أر أحلى منك • لكن يا حليمة تحرقني الوحدة • والجفاف يعصر قلبي • لو كنت معي هنا . نعيش معا ويزورنا أبي وابوك • » •

صب فنجان شاي ثانيا • سمع وقع اقدام تصعد السلم الى السطح . ازاح قطعة القماش التي تستر طاقة غرفته « مسكينة ، تقرا كثيرا . حياة طلاب الجامعة متعبة • هذه البنت الطيبة • وجهها يذكرني بحليمة • الوحيدة التي تكلمت معي من بين كل سكان العمارة » « ماذا تشتغل ! عامل في الشركة الخماسية • من أين انت ؟ من محافظة حماة ، من السلمية • اسمك ؟ أحمد المحمود • أنا اسمي عائدة المصمودي أدرس الحقوق في الجامعة • أنتم العمال حياتكم جميلة وشاعرية ، تعيشون على هواكم في غرف صغيرة . أتمنى لو كنت عاملة مثلك ، أعيش في غرفة سطح وأتخلص من أهلي • » « لو تعرف كم

العمل متعب . طيبة تظن العمل لعبا ، الوحيدة التي تسلم عليّ عندما أصادفها على السلم » •

صب فنجان شاي ثالثا « الدنيا لا تخلو من الطيبين حتى في المدن الكبيرة • » كان الفصل ربيعا والصباح ما يزال يحمل لسعات من برودة الشتاء « كم نحتاج للطيبين ليدفئوا عالمنا وقلوبنا ، لا أحد يدفئني الا أنت يا حليمة . من المؤلم أن يشرب الانسان الشاي وحيدا • ماذا لو دعوت عائدة لتشرب معي ؟ ستظن بي ظنا سيئا • فلأشرب الشاي وحيدا ، سأنتظرك يا حليمة • اذا أتيت الى هنا ، سأعرفك على هذه البنت الطيبة • مجتهدة ، دائما تقرأ على السطح • » وتذكر كلام عائدة مرة معه « أرجو ألا أزعجك بصعودي دائما الى السطح • أكره جو البيت كثيرا • » وفكر بأن الطلاب عمال كذلك وأن الحياة قاسية مع الجميع « يجب أن أشتغل مثلك • أبي تاجر جملة ، نحن أغنياء ، أكره حياتي في البيت دائما ، أبقى خارج البيت ، سأشتغل مثلك وسأعيش من عملي • » وتذكر أباه ، وتمنى لو كان استطاع أن يتم له تعليمه بدل أن اضطره للخروج بعد المرحلة الابتدائية « أحب المدرسة ، وأحب العمل والارض ،

سأقرأ لأعوض . هـذه الصبية تتعب نفسها كثيرا بالقراءة • حليمة تتعب هذه الايام كثيرا ، تنقل الماء من مسافات بعيدة . اخوتها صغار • » وفكر بأن يتول للفتاة ألا تتعب نفسها بالقراءة ، أو ألا تصعد الى السطح في مثل هذه الصباحات الباردة • كانت الساعه قد بلغت الخامسة ، وفي الخامسة والربع عليه ان يكون في موقف « السبع بحرات » ليقله الباص الى الشركة • فتح الباب • ومن العتبة رأى عائدة تتقدم اليه وتحييه « صباح الخير » ودون أن تنتظر جوابه قدمت لـه زهرة وقالت : « أنتم تستحقون الأزهار وأكثر ، أنا أحب العمال » •

عندما شكت له الزهرة في عروة سترته العتيقة أحس أن قلبه أفلت من القبضة التي كانت تضغطه • نظر الى الافق مرتبكا . كانت أشعة الشمس تشرق ، خيوطها تتخلل قطـع الغيم رقيقة وناعمـة كشعر حليمة الأشقر • ملأه فرح داخلي ، وأحس أن هذا العالم طيب وجميل ، وأنه يستطيع أن يضمه الى صدره كحليمة •

- زمن العبور

المطر يتساقط متمهلا ، كعجوز يتقدم - مجبرا - الى شهادة زور . فجأته بسؤال غير متوقع : « هل تحبني ؟ » لم يفكر بهذا الموضوع قبلا ، واضطر الآن أن يسأل نفسه . صحيـــح ، ان أكثر احاديثه في استراحات الدروس معها ، لكن الحب أمر آخر بل هذه أول مرة يسيران معا وحيدين خارج الجامعة . كان ذاهبا الى درس مسائي فراها خارجة . حياها ثم قالت له ان الاستاذ اعتذر ودعته للمسير معا . سارا . « هل تحبني ؟ » من اليسير أن يقول لها : « نعم » لكنه يعرف البنات . ستحدثه بعدهــا عن الزواج وعن .. وعن ... ومن الايسر أن يقول لها « لا » لكن .. وبجدية سال نفسه: « هل أحبها؟ » . وضعه سؤالها في موقف لم يكن مستعدا له « أحب فيك الفتاةالتي أريد والتي تستطيعين أنتكونيها . » استقر رأيه على هذا الجواب « يعني أنك لا تحبني .. أعرف معنى أجوبتك أنت خبيث » .

خيط المطر الواهي يزداد ضعفا ، لكنـــه كاف ليذكر الناس أن الفصل ربيع ، وأنه من الممكن أن تمطر في الربيع ، وأنها تمطر الآن . « خبيث » هاهي

تعيدها على سمعه « طيب » مرة قالت له « أنت طيب مثل عامل يسكن غرفة سطحنا » « طيب أم خبيث ؟ » سأل نفسه ٠

كانا يسيران معا في شارع جانبي مظلل بالأشجار وخال ، فكر في أن يقبلها . شعر بجفاف في حلقه ٠ بلع ريقه ولم يقبّلها « بصراحة . هل تحبني ٠ » لو يستطيع تغيير الحديث . شعر أن لسانه قد ربط لكن السؤال ما زال ازميلا يثقب رأسه « أحبها ٠٠ لا أحبها ٠٠ لا أعرف » ٠ كان هاملت يتساءل فيما اذا كانت الملكة الوالدة بغيا . لكنه لم يجد الجواب وظل السؤال دودة تنخر الرأس . والنتيجة ، شبه جنون ٠ « لا داعي لهذا السؤال ٠٠ أجبتك » « يجب أن تحدد موقفك بصراحة ، بشجاعة . هل تحبني ٠ » الكلمات تتضخم . كيف نبت هذا السؤال فجأة ، هل كانت تخفيه في حقيبتها مثل علبة السجائر « أبوها تاجر كبير وأبي فلاح ، من الصعب أن نلتقي ٠ » يتمنى أن يظل صامتاً لكن لسانها ابرة تخزه « أنا أحبك يا عادل » وأسلم أبو سفيان عندما فقد القدرة على محاربة الاسلام ٠

« أنا أعرف وضعك . لا تظن أن هــذا سيغرق

بيننا . لا يهمني المال • المستقبل لنـــا . ليس من الصعب أن نلتقي • » بعد أن أسلم أبو سفيان صار معاوية خليفة . ما عليك الا أن تكون بهلواناً فتعرف كيف تركب الموجــة • « أنا أكره طبقتي وأهلي وأقربائي ، لا يمكن أن أتزوج أحدا منهم . أريد أن أرتبط بالطبقة الصاعدة لا الهابطة • » « قد تكون نواياها طيبة ، لكن هذا لا يكفي • » سألته « لماذا لا تجاوب » عندما وضع أبو سفيان آخر عصا يملكها في عجلات العربة ، ولم تتوقف ، اضطر أبو سفيان أن يشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله ، فصار آمنا كل من دخل بيت أبي سفيان . بعدها ربطت خيول العربة في حظيرة أبي سفيان ونفي أبو ذر الى قيظ الصحراء •• « لقد اتخذت قراراً نهائيا بالانضمام الى طبقتكم • » أسلم الحطيئة وعندما توفي الرسول ارتد فيمن ارتد • استمر الاسلام . واستمر الحطيئة في عقليته الجاهلية • « أحبك •• أحبك •• أحبك أنت صخر » • لا فائـــدة . فالحطيئة جزيرة عتيقة في بحر جديد •• وستغرق « لماذا لا تجاوب ؟ أأخرس أنت ؟• قل انك تحبني ••• لا تحبني •• قل •• » كان الحطيئة طيباً جداً يحب أولاده ويشحذ

لهم ، لكنه علم عتيق ممزق فوق سفينة جديدة ، والسفينة تريد علماً جديداً • « أنت غير انساني من الصعب التفاهم معك • » « ربما » وشعر أنه من الصعب التفاهم معها • تذكر يوم قالت له : « أنت الوحيد الذي فهمني » يومها أجابها : « وأنت الوحيدة التي لم تفهمني » بعدها حدثته عن عادل يسكن غرفة سطحهم ، وأن أباها يأخذ منه أجراً قليلا ، وأنها تتحدث مع هذا العامل ببساطة وأنها تطمح أن تعيش ببساطة وأنت يا عادل بسيط وأنا أحب البساطة « اللعنة على هذه العلكة » « أنت يا عادل بسيط ، أنا أحب البسطاء •• » الآن فهمت تلميحها ذاك • بحث عن كلمة يقولها فلم يجد ، فتابع سيولة تذكراته • قالت « أنت ، رهيب •• صوان • أحبك يا عادل •• أحبك » كان الأعشى في هذه اللحظة مشغولا بنقش بيت شعر عن وعل نلل ينطح صخرة حتى كسرت قرونه « أحبك ••• أحبك » أوصيت على حذاء من بيروت ، حقيبتي هذه أحضرتها أختي لي من مصر • فستاني هذا أحضره لي أبي من العراق • وضع عادل يده في جيب سترته المثقوبة « أنا لا أركب سيارتنا •• أنا ضد أبي •••

أنا أركب الباص لا آخذ من أبي نقودا ·· آخذ من أمي ·· سأشتغل · أنا يسارية متطرفة . المستقبل للعمال » · كان لا بد لأبي سفيان من أن يسلم بعد أن حاصرت خيـــل المسلمين مكة ، والا فلن يصبح معاوية خليفة في المستقبـــل « ربما تكون صادقة في أفكارها وفي حبها لي ، وفي صداقتها مع العامل الذي يسكن غرفة سطحهم ، لكن أحاديثها الاخرى ··· عاداتها ··· » ما زال هاملت محتاراً : هل قتل عمي أبي بالاتفاق مع أمي ؟ أيها الممثلون مثلوا أدواركم بحذق وسأعرف ··· سأمتحن !

– عائدة ··· ما رأيك في أن نأكل سندويشة فلافل ؟

– على حسابي ··· رغم أني لا أحبها ·

– لا تمارسي شخصيتك عليّ ··· أنا دعوتك ·

عاد الصمت ، أحس أنه يجرحها بصمته وبكلامه · سمعها تقول :

– أكاد أختنق ··· لا أرض تحتي ··· لا أرض صلبة ، أنا أرفض أهلي وأنت ترفضني ،

كان جبلة بن الأيهم خيطاً معلقاً بين الجاهليــة

والاسلام لكن الخيط انقطع . وكان قلب جبلة في طرف الخيط الجاهلي . فمات في ديار الروم · أجابها :

– أنت برجوازية . هذا كلام برجوازيين ·

– دائماً تتهمني الاتهامات ذاتها ·· أنا أفضل مما تعتقد ·

« الرولزرويس أفضل أنواع السيارات ··· أنا لا أركب سيارتنا · » · كاد المطر يتوقف « غيمة عابرة · » قالها في نفسه وتابع تحديقه في ثنيات الاسفلت المبللة والعاكسة للضوء · تذكر طعم وصوت ورائحة المطر في قريته ·

– المطر في القرية اجمل ·

– العامل الذي يسكن غرفة سطحنا قال لي كذلك ··· ومرة قال لي : المطر في الحقول غير المطر في الشوارع · المطر في الحقول غير المطر في الشوارع . ومن الصعب أن يتساوى المطران . رغم أنهما من ماء واحد كما هو من الصعب أن يتساوى حر بمقيد . قد يبدو هذا غريبا ، لكنها حقيقة رغم أنف أبي سفيان والحطيئة وهارون الرشيد بل وعائدة المصمودي ·

- يعاودني الآن شعور أن الارض متميعة تحت قدمي .

- الارض صلبة دائما ... أما القـدم ... قدمك ...

- بدأت تتفلسف .

- يا ذات القدم المتميعة .

أيها الممثلون: هاملت يأمركم أن تتابعوا التمثيل. فكل فقراء جزيرة العرب يريـدون معرفة حقيقة عثمان وأبي سفيان والحطيئة .

- عائدة .. ما رأيك بالذهاب معي الى غرفتي .. في حي ساروجة .

- حتما هي فوضوية مثل غرفتي
- سترينها .
- لا أستطيع .. سأذهب الى بيت عمي .
- ما زال خوفك البرجوازي يلاحقك .

- بالعكس . ليس لـدي أي خوف ... أتكلم ببساطة مع أي شاب. أتصرف ببساطة . اليوم صباحا أعطيت العامل الذي يسكن غرفة سطحنا زهرة ..

بيدي شكلتها على صدره كتصديق ·· أعامل جميع الزملاء ببساطة ·· ان ··

« ما تزال تعلك علكة البساطة » ·

لو كنت أخاف ما كنت أسير معك الآن ·· هه ·· وصلنا موقف الباص·· سأركب ، بخاطرك ياعادل·

اضطرب عم هاملت أثناء التمثيل ، فعرف أبو ذر حقيقة عثمان ·

— روحي ·

كان المطر قد توقف تماماً ، عبر الشارع الى الرصيف المقابل لموقف الباص حيث يوجد محل لبيع سندويش الفلافل · اشترى سندويشة أكلها وهو يفكر « من الافضل أن يأكل الانسان الفلافل وحيدا من أن يأكله مع عائدة المصمودي ·· » ·

الأزمنــة الماضية

(١)

زمـن النهايـة

غيمات صيفية متطايرة ، تضيع في اتساع السماء هالة ضوء قمرية ، انسحبت من دائرتها كل النجوم الصغيرة • أرض جبلية • بيت قديم عليه مظاهر عز مضى • غرفة ينبعث منها ضوء شمعدان قديـم • سرير أثري فاخر ، يشهـد في صمته ، وارتفـاع قوائمـه ، على المستلقي فيه • قرأ الجريـدة التي اشتراها هذا اليوم من « البلـد » • فكر بأنه كان

أيام · جلس في فراشه ، وبدأ يلف سيجارة · فكر أول مرة ضبطه أبوه في العلية ·

– يا كلب تدخن · تدخن مثل أولاد العوام ؟

– أمانك ، أول وآخر مرة ·

« لم يضربني · كان رحيما · الله يرحمك ياحسين أفندي ، كان زمان ، وكان رجال » نظر الى الحائط المقابل كان ثمة طبق كبير مؤطر بالريش · أهدي للاب مع السيفين والترس في موسم واحد « الله يرحمك يا حسين أفندي · كان يحب هذا الطبق ، والسيفين والترس · كان يحب لعبة الفروسية في الاعراس » سحب نفسا من سيجارته ثم سعل « اللعنة على الحموي الفلش · هذا دخان ، ودخان الارض والجدار · دنيا » أنهى سيجارته ، فامتدت يده بحركة الية الى « الطبقة » تلف سيجارة أخرى ، وعلى لهب الولاعة خيل اليه أنه يرى شبحا يتحرك باتجاهه · بحركة فزعة أطفأ الولاعة · فاختفى الشبح · سمى باسم الله ، وقرأ آية الكرسي وأشعل الولاعة · ظهر الشبح مرة ثانية ، وكان أكثر اقترابا · أطفأ الولاعة · وكطفل مرتبك فتح صنبور الماء وما عاد يعرف كيف يغلقه · صار يشعل

الكبير . في وسط الغرفة « كانون » تحول من مهمته العمليــة الى مهمة تزينيــة وربما تكميلية للاثــاث القديم . على الارض علب سردين وأعقاب سجائر لف . وفي الزوايا أكياس في قعرهــا حنطة وشعير وبطاطا . وصناديق أخرى تحوي بقايا الأسرة . بينما علـّق على الحائط . وفوق رأس النائم سيفان أثريان بينهما صورة رب العائلة « حسين أفندي عبد الحق » بشواربه التي تشهــد أنه أخلص في خدمة الاتراك والفرنسيين والحزب الوطني . ومات دون أن يعرف مستقبــل ابنه وتحت صورة رب العائلة الوقورة . بين السيفين كذلك . صورة أصغر لفتى ذي وجه طولاني تعطي انطباعا أن صاحبها مسلول . وأنه سيموت قريبا . رغم وسامته « اللعنة على هذه الآخرة . من كل البيت الكبير لم يبق صالحا للسكن الا هذه الغرفة . آه يا أيام المنزول . كل ليلة عشرة ضيوف وأكثر . الله يرحمك يا حسين أفندي . ست وما شفت ابن عبد اللطيف صار صحفيا . ابن فطوم في الجامعة علوش . علي سعود أبوه عاش على طبقتنا . وهو الآن موظف في الشام . معاشه أربعمائة ليرة .

الافضل له لو تزوج . وعندما نظر الى ساعته ووجدها
الحادية عشرة قال بأنه يجب أن ينام · ألقى الجريدة
على الارض ثم نفخ حزمة هواء أطفأت الشمعدان ·
دس رأسه تحت « الشرشف » وهو يتمتم : « ابـن
الحرام صار صحفياً » · عاد يفكر بامرأة زوجة ·
عبرت في ذهنه صور بغايا ضاجعهن عندما كان يذهب
الى طرابلس · « من المستحسن أن يكون للانسان
امرأة ، ليضاجعها على الاقل » لكن « من تتزوجني
الآن · اللعنة على هذا الزمن · في الماضي كانت كل
بنات ونسوان الضيعة يقبّلن أقدامي · اللعنة على
هذا الزمن » وتذكر أيام عزه . ومطارداته لفتيات
ونساء القرية . تذكر فاطمة « أصبحت أم علي ·
علي ذهب هذا العام الى الجامعة . ألا تذكر كم مرة
قبلتها · كانت تتمنى مني كلمة واحــدة · كانت
أيام · لا أحد يعرفني في هذه الايام · كل الناس
كلاب ، يخدمونك أيــام العز . وعندما تــذهب ،
يعضونك » ، بجانب السرير القديم ، والناخر ، في
الغرفة الواسعة . كان هنــاك صندوق كبير مرصع
بالاصداف . قامت عليه مــرآة كبيرة ، وصناديق
أخرى أصغر ، وكراس من عهد السرير والصندوق

الولاعــة ويطفؤها • أخيرا أشعل السيجارة ، ولم يلتهمه الشبح ، وبــدأ يدخن تحت شعور كابوسي « أعصــابي تعبانة ، سأغلي فنجان قهوة » ولما لم يجد قهوة قرر الاستعاضة بالزوفة لعــدم وجود الشاي « اللعنة على هذه الضيعة . أليس فيها شيء . نسيت أن أحضر اليوم قهوة وشاي من البلد » وضع الابريق على الطباخ. وجلس على السرير . بعد أن أعاد اشعال الشمعدان • تناول الجريدة وعاد يتصفحها • « ابن الكلب صار صحفيا صوره في الجرائد • حول المؤتمر الثاني للفلاحين بقلم عادل عبد اللطيف » كان يفكر بعادل عبد اللطيف • يعرف أباه وأمه • كان أبوه فلاحا عندهم • تعلم وصار صحفياً ، ولم يتعلم ابن حسين أفندي سوى ركوب الخيل والنساء ، واليوم لا خيل حتى ولا حمير « وابن فطوم في الجامعة ، من يعرف ، ربما سيصبح رئيس جمهورية • كان المال بأيدينـــا • لماذا لم نتعلم . ربما لهــذا لم نتعلم • الحكومة أفقرتنا » شعر ببرودة فقام وارتدى قميصه ، وقبل أن يعود نظر من النافــذة • كان ثمة بيوت متفرقة . نام أهلها مبكرين ليستيقظوا باكرين • بصق ثم تمتم « كلاب . عاشوا على طبقتنا واليوم

يأخــذون أراضينا ولا يعطوننى ما يكفيني » صب
كأس زوفة ثانياً وأخذ يشرب ويتصفح الجريدة ·
« صوره في الجرائد ، أصبح معروفاً · كم مرة أعطيته
فرنكات عندما كان صغيراً · نسي · زمن » شرب
ثلاثة كؤوس زوفــة ، أطفأ الشمعدان وحــاول أن
ينام · مرة أخرى شعر بالخوف · عادت صور الماضي
تطرق مخيلته بعنف · عادل عبد اللطيف الصغير ·
عبد اللطيف · فطوم · محمود العلي · طرطوس ·
طرابلس · سبغى اللاذقية سراي الدريكيش · الخيل
والنساء « واليوم أين هــم وأين أنا » صحفيون ،
موظفون أولادهم طلاب جامعة « ولم يبق لي الا هذه
الغرفة » فأر طورد حتى ألجىء الى آخر جحر « ولا ولد
يعزي » الايام حصان أفلت لجامه من يد الذي كان
يظــن نفسه سائساً « أيام تركض . فتح عينيــك
وأغمضهما . وكل شيء قد تغير » وتمنى لو أنه لم
يذهب هذا اليوم الى البلد ولم يشتر الجريدة فيرى
صورة ومقال عادل عبــد اللطيف · عاوده التفكير
بزوجة · لكن « من تقبل ؟! » في أيام عزه كان ينام
مع فلاحات أبيه · كن يخفنه واليوم « الجميع كلاب »
ماذا جرى ؟ ما زال في السابعــة والاربعين « أولاد

كلب . دنيا وحظوظ وناس . دنيا مثل الجزرة يوم في يده وعشرة وراء ظهره » وعاد يتذكر أيام كانت الجزرة في يده . ساعده تذكر الماضي على حجب الخوف والتخفيف من كابوسه . أخذت الصور تتلاشى ثم تتحول من أحلام يقظة الى أحلام نوم بعد أن استغرق في نوم عميق ، عميق كالموت .

. . .

(٢)

الزمن الميت

« لا أريد أن أراها فمرآها يبعث الشجى في نفسي، ويشقيني أن أذكر نورها الاول ، فانظر قدما الى شموعي الموقدة » الشاعر اليوناني المعاصر كافافيس .

الشارع طويل ، عريض ، والرصيف ضيق . عندما دخله لم يكن يعرف أنه الشارع الذي تعمل في دائرة فيه .

. . .

العمل متعب ، أحد المراجعين حاول مغازلتها ، بالاضافة الى مغازلات الزملاء الذين يتعبون من ساعة

عمل ولا يتعبون من مغازلة عامين . يوم عادي آخر ، والساعة الآن الثانية . وعليها أن تخرج من دائرتها . ستسير حوالي ثلاثمائة متر وبعدها تستقل سيارة الى البيت . تأكل وتنام . وفي المساء تزور صديقتها . ربما تذهبان الى السينما وربما تتجولان في الشوارع تتفرجان على آخر الازيـاء . وقد تبقيان في البيت تتحدثان عن العادة الشهرية ، وعن الرجال ، والزمن يدور أو يسير في خط مستقيم . ولا فرق . فالنهاية معروفة .

. . .

يوم عادي آخر بالنسبة له . خروج من المجلة . ذهاب الى البيت . وبعد الغـداء في مطعم قراءة ، عودة مسائية الى المجلة . سينما أو قراءة أو زيارة صديق أحمد بيت العمل والسياسة والنساء . واليوم تغيير بسيط . له موعد في الساعة الثانية مع شخصية سياسية . والطريق في هـذا الشارع . فالسياسي يسكن في طرفه . وتذكر أنه منذ عامين لم يمر في الشارع وتذكرها .

. . .

وبحكم عملها فهي مضطرة للسير مرتين كل يوم

في هذا الشارع • في البداية . كانت تتذكره وتتمنى لو كان عملها في غير هذا الشارع . ومع الايام أصبح الشارع دربآ عاديا ، وربما فستانا عتيقا — كان جميلا — لا مانع من ارتدائه ـ في البيت على الاقل ـ وان كانت تقابل حبيبها فيه •

• • •

منذ عامين لم يمر في هذا الشارع ، لكن هذا لم يكن عملا أليس له أي عمل أو طريق منه . فلمَ المرور ؟! وعن بعد مئتي متر لمحها ، ولمحته كذلك ، كان من العسير ألا يعرفهــا . وكان من الأعسر ألا تعرفه • رغم أنهما لم يتقابلا منذ عامين بالضبط •

« لا ريب أنه عادل • أعرفه رغم المسافة ، حقق أمله بسرعة وها هو يشتغل بالصحافة • اليوم قرأت أول مقال له ، كان يقول لي أنه سيكتب عن الفلاحين ، وها هو يكتب • مشيته لم تتغير . أشعر بارتباك » •

• • •

« لا ريب أنها عائدة . أعرفها رغم المسافة . ماذا حصل معها ، هل توظفت ، مشيتها لم تتغير • أشعر بارتباك » •

كان ثمة موظفان يثرثران ويتبادلان في كتب

يعرفه كلاهما دعوات الغداء ، وكانا يتغامزان على زميلتهما ٠

« أشعر بارتباك ٠ منذ عامين لم أره ، لماذا لم يحـاول رؤيتي أو السؤال عني بعـد افتراقنا ٠ صحيح أن كل شيء بيننا ، انتهى ، لكننا اتفقنا أن نبقى أصدقاء ٠ على الانسان أن يخلص لماضيه » ٠

٠ ٠ ٠

« أشعر بارتباك ٠ منذ عامين لم أرها ، لماذا لم تحاول رؤيتي أو السؤال عني ٠ صحيح ان كل شيء بيننا انتهى لكننا اتفقنا أن نبقى أصدقاء » ٠

٠ ٠ ٠

« هو ٠ هو ٠ لم يتغير ، يسير ملاصقا الجدار ٠ كان يقول لي اتمنى لو يبتلعني جدار ذات يوم ٠ على عادته لا يضع ربطة عنق ٠ كان دائما يقول لي : أنت برجوازية عندما أسأله : لماذا لا تضع ربطة عنق، أظن أنه سيبر بوعده ولن يلبس ربطة عنق طوال حياته . يبدو أكثر أناقة من السابق ٠ أصبح صحفيا ، هل ما زال على طبيعته المرحة ؟ »

« أنت تسير قرب الجدار ٠ وأنا أسير على الحجارة التي تفصل الشارع عن الرصيف ٠

ـ لهذا نحن متباعدان دائماً ٠

ـ صديقتي ليلى تسير وسط الشارع ٠ السير على الرصيف احدى فضائلي الاخلاقية الكبرى ٠

كانت نكاتها ظريفة مثل شخصيتها ، هل ما زالت تحب المزاح ٠ تبدو لي أكثر جمالا » ٠

• • •

« لماذا أتى الى هذا الشارع ؟ هل الامر مجرد مصادفة أم أنه عرف أنني أعمل هنا ٠ هل يأني الى هذا الشارع كثيراً ؟ ماذا يحس عندما يمر في هذا الشارع ؟ هل يحمل أية ذكرى خاصة لهذا الشارع ٠

« ماذا تفعل في هذا الشارع ٠ هل الامر مجرد مصادفة ٠ ربما أصبحت تشتغل في هذه الدائرة ، شكلها شكل موظفة » ٠٠

سيارات قليلة تمر في الشارع رغم أن الوقت وقت خروج الموظفين ، لكنه شارع جانبي ٠ الناس يتابعون مسيرهم أو يندسون في سيارات عابرة ٠ عبر زميلا عائدة ٠ سلما عليها ٠ وباتجاه عادل تابعا الطريق وهما يتفاخران ٠ تضايق عادل ٠

« صحته متحسنة ٠ دائما كان يقول لي أن صحته

لن تتحسن. يبدو أنه ترك السهر . أحس قلبي يختنق .
أشعر بارتباك . دائما كان يقبلني في هذا الشارع .
كل قوى الأرض لا تستطيع أن تقنعني أنه كان لا
يحبني » ...

...

« هي . هي . لكنها تبدو أكثر جمالا . أشم في
هذا الشارع رائحة كعطر الذكرى . دائما كنت أقبلها
في هذا الشارع . كنت أحبها . وكنا نحب معزوفة
رجل وامرأة »

الشارع طويل عريض. والرصيف ضيق . الشمس
حارة . أشعتها تكاد تصهر الاسفلت . تذكرا ليل هذا
الشارع. ليالي الصيف فيه . المصابيح تتخلل الأغصان
والشارع شبه خال في ليل صيفي . وهذا ما يريده
عاشقان . والحب في ليل الشوارع جميل .

...

« مرات كثيرة جلسنا على هذا الرصيف . مرة كان
عادل يحمل معه زجاجة بيرة شربناها ونحن نجلس
على هذا الرصيف . حياة الطلاب حلوة . هل أحب
غيري ؟! هل يأتي معها الى هذا الشارع . اقترب مني .
لا ريب أنه عرفني كما عرفته . هل سيسلم علي ؟ .

تذكري كل شيء بيننا انتهى • اعتبري نفسك لم تحبيني • كنت حلما لك » •

• • •

وتبقى للشوارع رائحة خاصة ـ وخاصة الشوارع الدمشقية ـ قلة هم أولئك الذين يحسنون شمها • رائحة في الليل . رائحة في النهار . رائحة في الصيف ، رائحة في الشتاء ، وفي كل زمن رائحة . لكنها تبقى مميزة دوما • ولكل شارع رائحة • عادل وعائدة كانا يحسنان شم هذه الرائحة . ويميزان رائحة كل شارع . لكل شارع عندهما رائحة خاصة ، وأحب الروائح رائحة هذا الشارع • •

• • •

« كم سرت معها في هذا الشارع • هل أحبت غيري • نهاية تمرد أولاد البرجوازية معروف . مثل كل موضة لا ريب أنها أحبت شخصا من عائلتها ، ان لم تكن تزوجت أحدهم • كانت تقول لي : تخليت عن طبقتي وانضممت الى طبقتك • اذا لم أعش معك فلن أعيش مع أحد ، لن أعيش مع آل المصمودي • مرة قالت لي : لو نسكن على هذا الرصيف • هل ما زالت تحبه . تحب رائحة الشوارع مثلي • لماذا افترقنا الاسباب لا تهم •

ما حدث هو الأفضل . يبدو لي أن الأفضل هو الذي يحدث دوما . هل ستسلم علي . هل يجب أن أبدأ أنا التحية . هل نقف معا . ها قد اقتربنا . عشرون مترا بيننا » .

« عشرون مترا بيني وبينه . هل سيسلم علي ؟ هل أبدأ أنا التحية . هل سيقف معي . هل أحدق في زجهه وأجبره على تحيتي » .

« هل ستتظاهر بأنها لا تراني . هل أسلم عليها . ان نظرت وان لم تنظر » .

« المسافة بيننا خمسة أمتار انه يحدق في وجهي . ثعلب كما كان يستطيع اخفاء انفعالاته . هل سيسلم علي ؟ » .

« المسافة بيننا متران . هل ستسلم علي . كل شيء بيننا انتهى . سنبقى أصدقاء اعتبر نفسك لم تحبني . انها تحدق في وجهي ، نظراتها ما زالت قوية » .

« المسافة بيننا متران . كل شيء بيننا انتهى » .

والمسافة بينهما متر واحد . في وقت واحد أدار كل منهما وجهه في اتجاه معاكس . هو للجدار الذي ما زال يتمنى أن يبتلعه ذات يوم وهي الى الشارع

الذي كانت تعبره الى الرصيف الثاني فيتبعها عادل ويقبلها عليه • كانت أشعة الشمس قد أذابت رائحة الشارع• عبرا بمحاذاة بعضهما • هو ملاصقاً الجدار وهي على الاحجار التي تفصل الشارع عن الرصيف . بينما كان ثمة شخص غريب يعبر من خلال المسافة الفاصلة بينهما •



الأزمنة الآتية

ترنيمة الهجرات القسرية والمستمرة

عادل عبد العفيف :

كان أدرى بالزمن والمسافات القتيلة والحروب وآلام بيارات اللهب والليمون . وكان الصاعد في عروقه دماً ، وليس وحلا .

ندى :

وجهها أيقونة حب . حدثها عن الحب والدم والفجر الذين يرحلون وزمن الهجرات القسرية والمستمرة ، عن الماضي والآتي والهنود الحمر الجدد ،

عن عذابات الناس وطفلهما الموعود . والضوء الذي يولد كل لحظة .

سهى :

شعر دفء . حدثها عن الاقامة في الفنادق وحاجته للسكن في غرفة دافئة ، عن ندى ورحيلها ، عن الوجوه والصقيع في هذا العالم . حدثها عن الغرفة الدافئة والشاي وصوت نجاة، والصدور عندما تكون مرافىء الحنين واللهب .

مهى :

قامتها سارية وشراع . حدثها عن الزرقة وصمتها وعينيها والضوء الذي ينير الطرق وخوفه أن تطويه عجلات شاحنة ذات صباح . بحماسة حدثها عن العصافير والحدائق العامة وأوراق الاشجار والبحر والجبال والطفولة والبيت الذي هدموه والرياح التي تتشرد فيمضارب اللاجئين والفجر . حدثها عن البحث عن موطيء قدم في فراغ العالم . عن عري أشجار الخريف والذين يموتون خلف النهر والاسلاك وصديقه الذي أصبح خشبة صغيرة في جسر العودة . والذي سيسميان طفلهما باسمه .

نهى :

عيناها أفيـاء حنين متشرد • حدثها عن الحروب والنفوس والصعاليك الجـدد والصـمت والثـورة والمستقبل والطرق على بوابات الزمن والمدن والناس والكتب التي لا يستطيع شراءها • حدثها عن النوم تحت شبابيك الحبيبة والفرح الحزين والحب والموت وصوت فيروز والذين يسقطون في أزمنة العبـور : رفاق المسافات القصيرة على الدروب الطويلة •

منى :

صدرها بحر عذب • حدثهـا عن عطشه والصيف وهمنجواي والدم والتراب . عن التمييز العنصري والفيتنام وقصص يوسف ادريس ولوحات بيكاسو والياس زيات والنجـوم التي تموت قبـل أن يصل ضوؤها • مرة أخرى حدثها عن الطفل الموعود • وحاجته لجدار يستند اليه ، عن مهى ولبنان وفلسطين

عايدة المصمودي :

كانت عذبة كماء دمشقي، لكن شرب منها الجميع • حدثها عن أزمنة الشروق والعبور والنهاية والموت . عن الطفيليات التي تتسلق أعمـدة الحـاضر . عن الاحذية والطقس والتبعات والبغايا وواجهات بوابة

الصالحية و ... و ... و ... حدثها عما يحدث ،
عن الذي لا يمكن أن يستمر أبدا .

نجوى :

رحل في جزرها الوحشية وحدثها عن موبي ديك
والصيادين الفقراء وأبيه وقريته وأرض الشرقاوي
والكتب التي لا يستطيع شراءها . عن وحدة عداء
المسافات الطويلة والذين يموتون دون الوصول .
حدثها عن كامو والصيف وشرف الانسان والذين
ولدوا ليقولوا كلماتهم . حتى بطريقة موتهم ، حدثها
عن الغابات البكر وجذوع السنديان والصنوبر الذي
قطعوه والآثار التي سرقوها . حدثها عن ...

رشا :

حدثها عن الآمال الجريحة والبحار التي استنقعت
والعيون المطفأة والذين يرحلون دون تلويحة حب .
عن حرب الايام الستة واليوم السابع وجسر العودة
والاطفال وكل الفتيات اللواتي أحب . حدثها عن
الشمس التي تزهر كل صباح .

وذات يوم غنى :
بيني وبين الضوء آماد
من اللحم المقدد والصديد

واحدة :

ستاها فنجان قهوة • ذهبت معه • عانقتها ، ضاجعتها ، لبست ثيابها ، ومثل غيرها رحلت •

باسمة :

أحبها وأحبته واتفقا أن يسميا الطفل طارق • ثم ••• ثم ••• ذهب كل في طريقه •

عادل عبد اللطيف :

الطفل ينتظر الولادة في بطن ما • النهار في أوله • الدم في العروق رغم صقيع الفنادق . وما زال يملك الكثير من الأحاديث والأشرعة والدفء •

ترنيمة السكن

••• وبدأ يفك حقيبته التي ربطها في الصباح « ماالفائدةمنالعودة الىالقرية؟ سأضجر فورا وأعود ـ كالعادة ـ ثم أنني وعدت زهرة أن ألقاها غدا في المطعم » •

وقف فيطابور طويلمنتظرا دوره• وراءه مباشرة كان ثمة فتاة منتظمة في الطابور • وصل اليه الدور فتناولصينية وناول من وراءه صينية أخرى• كانت ترتدي بلوزة شبيهة بقميصه • « شكرا » • قالتها وابتسمت•لاحظتكما لاحظ هو اتفاقهما فياللباس•

تبادلا الابتسام « بلوزتك جميلة » ابتسمت أكثر •
تابعا المسير في الطابور • طلب « كبة » فطلبت مثله
وهي تبتسم قائلة : اذا كنا متفقين في اللباس فسنتفق
في الطعام •

ـ اذن أنت ستختارين الصنف الثاني •

ـ اختار الحب مع الرز •

ـ أنت ذواقة •

ـ شكراً • • • ما رأيك بتفاحتين ؟

ـ أنت برجوازية •

وابتسمت • كان مصمما أنها آخر وجبة له في هذا
المطعم • ربما سيبقى عدة أشهر ـ كما وضع في
حسابه ـ دون أن يرى هذا المطعم • وصلا المحاسب •
دفع كل منهما ثمن طعامه • مرات كثيرة تبادل الحديث
مع زميلة تختار طعامها • ما الجديد ؟!

تقدم أحد العمال وتناول صينيته وصينية الفتاة
التي وراءه ثم وضعهما على طاولة واحدة •

ـ ظن العامل أننا نعرف بعضنا وأننا سنتغدى معاً •

بمرح أجابت :

ـ لن نخيب ظنه •

كانت تبدو فرحة • ارتبك عندما وافقت العامل

على خطيئته • فيما مضى حصلت حوادث كثيرة ، لماذا ارتبك ؟! قال لنفسه ان حالته النفسية السيئة هي السبب • منذ شهرين وهو قلق : هل يذهب ؟! هل يبقى ؟! الدرس سيء ولا أحد له • أصدقاؤه بعضهم تخلى عنه وهو تخلى عن الآخرين ، والفندق بارد . فلم البقاء ؟!

ـ هل تأكل دائما هنا ؟

وانتبه الى أن أحداً معه على الطاولة •

ـ ايه •• نعم •• نعم •• رغم أنني أعرف أن الطعام هنا سيء ، أحب هذا المكان . ولا تنسي أن السعر رخيص •

وضحكا بعد أن قالت : هذا أول ما أذكره •

ـ ابدأ أنت بالطعام أولا •• أحب أن أراقب شخصا يأكل •

ـ لا تظني أنني سأرتبك •• هه •

وأخذ يأكل محدقا الى صحنه فقط . وكأنها غير موجودة •

ـ أنت قوي •• لا تؤثر فيك نظرات الآخرين •

ـ ذلك لاني لا أضع نفسي في مداها المجدي •

ـ تعبيرات عسكرية •

ـ الظروف والجو يفرضان هذه التعبيرات •

ـ طيب •• انظر أنت الي •• ضعني في مداك المجدي وسآكل دون خوف •

وبدأت تأكل وهو ينظر اليها •

ـ أنت تلهي نفسك •• أنا مثلاً لا أهتم بنظرات الآخرين •• أقصد المدى المجدي •

وفكر أن يسألها عن اسمها لكنه لم يجد مسوغاً • المهم أنهما يتغديان معاً ـ الآن ـ وبعد قليل سيفترقان كل في طريقه وقد اعتاد هذه اللعبة •

ـ أنت تأكل بسرعة •

وابتسم • لاحظ أنها هي التي تبدأ الحديث مع أن عادته أن يكون المبادر ، خاصة مع الفتيات •

ـ هل تحبين فيروز ؟

ـ لا أحبها •

شعر بخيبة وارتسمت على وجهه علامات تعجب وانكار ، شعر أن بابا قد أغلق •

ـ لا أحبها •• بل أعبدها •

شعر أن نسيما بحرياً قد هب ، وأن الباب فتح على مصراعيه •

ـ آمل ذلك •• هل تحب نجاة الصغيرة ؟

« الملعونة عرفت أنني سأرد عليها بمقلب مشابه فقطعت الطريق » وقرر أن يتمادى :

ـ لا ٠٠ لا أحبها ٠

حدقت في وجهه مليا ، فارتبك ، ونظر الى الصحن أمامه ثم تابع الأكل ٠

ـ لا تهرب ٠٠ واجهني ٠

ونظر الى وجهها مرتبكا ٠

ـ أنت تحب نجاة ٠٠ هذا ظاهر من وجهك ٠

ـ في الحقيقة أنني ٠٠

ـ اذن نحن أصدقاء ٠

ـ في الحقيقة أنك تحب نجاة . أعرف الذين يحبون نجاة من وجوههم ، ثم أنت تحب فيروز ٠

وشعر أنه لا يملك الجواب ٠ دائما يتبادل الحديث مع شباب وفتيات عن فيروز ونجاة وباقي الفنانين ، وكان يعتبر هذه الاحاديث هربا من الأحاديث الجدية والمهمة، وأحيانا كان يهمس لنفسه ان الفتيات خاصة لا يفهمن الا هذه الاحاديث ، والآن يشعر عمقاً خاصا لهذا الحديث يشعر أنه يتكلم من أعماقه عن تشرده وحيرته وقلقه . ولأول مرة يدرك معنى أن يقول انسان لانسان في بلدنا « أنت تحب نجاة حتماً » ٠٠

وفكر ثانية أن يسأل الفتاة عن اسمها ، كانت الرغبة هذه المرة أقوى . لكن ما المسوغ ؟! بعد قليل سيتوجه الى المحطة وهي الى .. سمعها تسأل :

ـ هل تحب السينما ؟

ـ جدا .. جدا .. جدا .

ـ أوه .. أنت متحمس .. نحن أصدقاء مرة أخرى ، من تحب من المخرجين ؟

ـ غودار وبريسون .. وقبلهما ايزنشتاين .

ـ ومن المخرجين العرب ؟

ـ صلاح أبو سيف وحسين كمال .

ـ لكن حسين كمال أساء في فلم «أبي فوق الشجرة» ... ثم لا تنسى توفيق صالح ..

ـ أفلام توفيق صالح قليلة .. نسيت أن أذكر لك يوسف شاهين .

كانت الساعة قد بلغت الثانية وفي الثالثة عليه أن يكون في المحطة .

ـ هناك موجة جديدة من المخرجين الشبان عندنا ، وآمل منهم خيرا كثيرا ، أخرجوا فيلما اسمه ثلاث قصص ليوسف ادريس ويحيى حقي ونجيب محفوظ . والمخرجون ثلاثة .

لم يكن يعرف أن هــذا الفلم يعرض ، على كل اليوم أحــد وهو اليوم الذي تبــدل فيه السينمــا عروضها ، وشعر بالأسف لانه سيذهب دون أن يرى هذا الفيلم ·

ــ سمعت بهــذا الفلم ·· عندما أراه سأحكم عليه ·

ــ طيب ما رأيك أن نحضره معاً ·· اليوم ·· ثم نتناقش و نحكم معا ؟

ارتبك عندما سمع اقتراحها ، رغم أنه من العادي بالنسبة له أن يذهب الى السينما مع فتيات · مرة رأى فتاة عند شباك التذاكر فطلب منها أن يحضرا العرض معاً ، ثم خرجا وتجولا في الشوارع ثم جلسا في حديقة عامة · كان اسمها ندى · مرة جلس قرب فتاة مصادفة وبعــد أن خرجا شربا الشاي معاً ثم أصبحا صديقين · كان اسمها نجوى · حوادث كثيرة مشابهة · لكنه ارتبك ··· كان واضحاً أنها تدعوه بصدق وجدية ، وأن تطور الحديث هو الذي قادها الى الدعــوة ثم لا يبــدو عليها أنها ·· وبحركــة لا شعورية نظر الى ساعته · كانت الثانية والربع ·

اذن هي تدعوه الى حفلة الثالثة والنصف وفي الثالثة عليه أن يكون في محطـــة السيارات . وحتى يكسب مزيداً من الوقت حاول أن يمزح :

ــ على حساب من ؟

ــ كل على حسابه ، أعتقد أن حالتك المادية ليست أفضل من حالتي ، كلانا طالبان ، ثم أنني مصممة ألا أصبح حريماً لأحد .

عرف أن مزاحه أزعجها، أو أنها أظهرت الانزعاج لتفهمه حقيقتها قال :

أوافق يا ...

زهرة يا ..

عادل يا زهرة .

. . .

وأتى اليه صاحب الفندق الذي ينزل فيه وهو يقول له عندما عاد ليلا :

ــ يبدو أنك غيرت رأيك ولن تعود الى القرية .

ــ لا .. لا .. سأبقى هنـــا .. سأنـــام عندكم الليلة فقط ، غدا سأبحث عن غرفة أسكن فيها ... كما تعـــرف السكن في غرفة أفضل من الاقامـــة في فندق .

خاتمة : ظهور سانتوبانسا

قررت قضاء اجازتي السنوية في قريتي ، وكم سررت عندما وجدت بعض فلاحي القرية يمتدحون المقالات التي أكتبها، ومقالاتي عن مشكلات الفلاحين خاصة · في رابع أيام الاجازة قال لي أحد أصدقاء الطفولة ـ أصبح مدرس رياضيات الآن ـ ان في القرية رجلا غريب الاطوار قدم القرية حديثا وبنى بيتا منعزلا · ثم أضاف صديق الطفولة عن الرجل الغريب: « انه أحيانا يقضي نهارا كاملا مع الفلاحين

وأحيانا يبقى مدة طويلة دون أن يراه أحدهم ، وقد زاره بعض الفلاحين فرأوا عنده أشياء غريبة من بينها نول يدوي وآلة نسيج حديثة جدا وسمعوا الة تسجيل تعيد دوما لحن ناي . كما رأوا عنده كذلك أدوات كثيرة قديمة جدا وحديثة جدا • وقد قال لهم بأنه هو الذي صنع هذه الأدوات » •

ولما كنت أعرف كل فرد من أفراد قريتي ــ فهم اقربائي ــ فقد قررت التعرف على هــذا الطارىء الجديد باعتباره أصبح من سكان القرية • والحقيقة أنه من الامور الغريبة جدا بالنسبة لقرانا أن يفد اليها شخص جديد مقيما . فكل قرية عندنا تنحدر من جد واحد وبالتالي هي أسرة واحدة وربما وزعت هذه الاسرة فكونت مجموعة مــن الاسر أي القرى التي تقيم كلها في منطقة واحدة • وأظن أن اعتقاد أهل قريتي أن كل الناس ينحدرون من أب واحد هو آدم مصدره هذا الواقع •

رافقت صديق الطفولة الى الرجــل الغريب • كان شيخا ، لكنه بدا قويا • رحب بنا وسأل كلا منا عــن عمله فابتسم عندما أخبرتــه أنني صحفي • وعندما ودعناه بعــد أن أرانا عجائب بيته سبقني

الى مافي نفسي وقال : حتماً أنت تفكر باجراء مقابلة صحفية ·· حسناً تعال غدا مساء ·

ثم أضاف مبتسما · لكنني أشك في ان المقابلة ستنشر بل ربما سببت لك متاعب كثيرة ·· على كل غدا مساء ·

· · ·

مساء اليوم الثاني ذهبت اليه · وكنت أحمل عدة الصحفي العصري « كاميرا » ، آلة تسجيل ، دفتر جيب وقلم رصاص · قبل بداية المقابلة قال لي : « سأريك بيتي كاملا » · درت معه في البيت · كان اتساعه الداخلي يجعل المرء يشك في صحة نظره عندما يرى البيت من الخارج · رأيت عنده محاريث رومانية قديمة وجرارات حديثة · رأيت نماذج مصغرة ـ لكنها تعمل ـ لسيارات وطائرات وصواريخ ومعامل · رأيت حاسبات الكترونية وحاسبات خشبية كالتي تعلمنا عليها في الصف الاول · رأيت مكتبة بكل اللغات · فقلت في نفسي : ربما يكون أحد المثقفين العظام الذين أتعبهم البحث عن سر الوجود · فآثروا الراحة بعد أن أتعبهم السر ، ولو لم يكن الدكتور شفايتزر قد مات لقلت انه هو ،

والحقيقة أنني كنت مهيئا للاقتناع بهذا الرأي بل ربما كنت أستطيع التصديق أنه الدكتور شفايتزر وقد هرب الى قريتي بعد أن ادعى الموت ليتخلص من المضايقات · لكنه عندما قال لي ان كل هذه الكتب من تأليفه بدأت أشك في عقـــل الرجل ، ثم أضاف قائلا بأنه سيحسن أدواته وصناعاته في المستقبل كما أنه سيؤلف كتبا أعمق رغم ظروفه الصعبة ، ثم قال انه واثق أن ظروفه ستتحسن في المستقبـــل ، وأن المستقبل له · بعد أن جلسنا على حصير متواضع قال لي : حتما أنت تتساءل من أنا ·

والحقيقة أن السؤال كان يدور في ذهني لم أقاطعه، وانتظرته أن يتابع · قال : أنا سانشو بانسا ·

· · ·

بدا لي الاسم غريبـــا في بادىء الامر ، ورحت أتذكر أين سمعت بهذا الاسم · تابع قائلا : أظنك سمعت بهذا الاسم ·

وتذكرت أنني حقا أعرف هذا الاسم ولكن · · ·
تابع قائلا : ألم تقرأ روايـــة ميخائيل سرفانتس « دون كيشوت » ؟! ألا تتذكر تابعه سانشو بانسا ؟!

عرفت أنه استنتج من نظرتي اليه أنني لم آخذ

الامر على محمل الجد • فقال مؤكدا : أنا سانشو بانسا وبامكانك أن تصدق وألا تصدق •

• • •

عندما كنت في المرحلة الابتدائية قرأت تلخيص سلسلة « أولادنا » لرواية دون كيشوت . وفي الصف الثاني من الجامعة أعارتني عائلة المصمودي ترجمة عبد الرحمن البدوي الكاملة والغالية الثمن ـ وهل يستطيع أحد الا آل المصمودي شراء هـذا الكتاب لتزيين غرفة الاستقبال ـ على كل التلخيص والرواية متفقان على أن دون كيشوت وتابعـه سانشو بانسا شخصان خياليان اخترعهما خيال الكاتب الاسباني سرفانتس ، وقد قرأت مقالات وآراء كثيرة تفسر دون كيشوت ، لكن كل تلك الآراء متفقة على أن الشخصية خياليـة ••• أما أن يظهر سانشو بانسا أمامي فهذا يعني أن دون كيشوت موجود حتماً ، وأن كيشوت وسانشو بانسـا شخصان حقيقيان •• بـل وخالدان ، وهذه المرة لم أستطع الابتسام كعادتي عندما أتذكر دون كيشوت ، لكني في النهايـة لمت

نفسي على هـذا التفكير فقد تذكرت مجنونا يظن نفسه نابليون .

. . .

قام وغلى « زوفة » ثم بدأنا نشرب . وعندما بدا يستعد للكلام طلبت منه أن يغلق مسجلته التي تعيد صوت الناي الحزين حتى أسجل حديثه على مسجلتي. لكنه أفهمني أن صوت الناي الحزين مرافق له أبد الدهر ، وأنه لن يؤثر على تسجيل كلامه .

. . .

بدأ كلامه قائلا : بامكانك أن تعترض على أي جزء من كلامي عندما تظنه غير صحيح. كما بامكانك أن تسألني أي سؤال يخطر ببالك أثناء عرض قصتي ... يا بني أنا سانشو بانسا . لا يهم متى ولدت . المهم أنني موجود ، وأنت تراني الآن شيخا وقويا . ولا أذكر نفسي الا هكذا ، وقد عذبني دون كيشوت دوما ، فاضطررت مرة للبوح بسري لرجـل اسمه ميخاتيل سرفانتس وطلبت منه أن يعرض على الناس قصتي ، لكن سرفانتس قبض مالا من دون كيشوت فكتب القصة كما أراد دون كيشوت لا كما تحدثت .. أنا أحب كل الناس .. مسالم أبدا .. عشت في كل

العصور ، وكل حياتي قضيتها اما مطاردا من دون كيشوت وجواسيسه واما تابعا مقيدا • عندما يقبض علي هذا الوحش يركبني حمارا ويجبرني على السير وراءه الى مغامراته وحماقاته التي لا يعرف أحد مدى جنونها وحماقتها مثلي أنا الذي اتغرب عن زوجتي وأولادي وأرضي •• أحيانا أقول : هذا اللعين لا يهدف من مغامراته شيئا سوى القضاء علي ••• مررت مرة في بلاد الاتروسكان فاعجبني مكان ذو سبعة تلال وظلت اخيم مع زوجتي واولادي واحفادي فيه . بنيت لكل منهم بيتا على تل • ومع الايام اتصل بناء التلال وسمينا المكان « روما » وعشت مدة مع اولادي في نعمة الزراعة . لكنني فوجئت بدون كيشوت يجد مكاني . فسيطر على التلال السبعة بعد أن غيّر اسمه وتسمى « نيرون » وفي النهاية أحرق نيرون روما •• هل تعرف يا بني لماذا أحرق نيرون روما ؟! أحرقها ليحرقني وأولادي. وبعدها ادعى نيرون الجنون • ادعى الجنون حتى لا يحاسب على فعلته تماما مثلما قال سرفانتس عن دون كيشوت انه مجنون ليسوغ حماقاته وجره لي اليها •

هربت من روما والتجأت الى الصحراء ، فآواني أحد أحفادي . ولما ضاقت بي وبأحفادي الصحراء نقلني هذا الحقير الى بلاد الشام والعراق لكن دون كيشوت عرف مكاني فأحرق الشام والعراق بعد أن تنكر هذه المرة تحت اسم « هولاكو » . أحرق بيتي بغداد فالتجأت الى أوروبا وبدأت أبني المدن لاولادي وأحفادي ، لكن دون كيشوت استطاع أن يجد مكاني بعد أن بحث عني في كل مكان ، هل تعرف لماذا حدث الذي تسمونه الاستعمار ؟ حدث لان دون كيشوت كان يبحث عني ، وجدني هذه المرة مع بعض أحفادي في « بافاريا » الجميلة وجدني بنفسه هذه المرة كان يضع على رأسه قبعة عليها شارة صليب معقوف وقيل لي أنه سمى نفسه هذه المرة : هتلر .. لكنك يا بني لم تسألني أي سؤال .. أعرف أن في نفسك أسئلة كثيرة أولها أن دون كيشوت مجنون وليس طاغية .. لا يا بني لا .. دون كيشوت طاغية ادعى الجنون حتى لا يحاسب على أفعاله : لماذا أحرق نيرون روما ؟ لانه مجنون . لماذا أحرق هولاكو بغداد ؟ لانه مجنون ، لماذا أحرق هتلر العالم ؟ لانه مجنون . وهكذا فان دون كيشوت يبدو في كل ظهور من

ظهوراته سجنونا بينما أبدو أنا تابعا مغررا به ٠ سرفانتس هو الذي أكد للناس جنون دون كيشوت ٠٠ حتماً في نفسك سؤال عن سرفانتس ، ذاك الذي حكيت قصتي له فزورها عندما كان أسيرا فحكيت له قصتي ، وقلت احكها للناس بعد أن لمست نباهته ، قلت له احكها ليعرف العالم الحقيقة ، وليتخلص جدك من عذابه ، لكن دون كيشوت استطاع اغراءه بالمال وجعله يكتب القصة بطريقة تجعل قارئها يسأل : من هو المجنون الحقيقي ؟ الاحمق أم الذي يصدق الاحمق ويتبعه ؟! دون كيشوت نفسه قال لسرفانتس اكتب القصة بهذه الطريقة ٠ أنا أعيد قراءة هذه دائما ، وأعيد رؤيتها في حوادث هذا العالم ٠ ودائما أقول لنفسي : اذا كانت الامور قد جرت حقاً كما يقول سرفانتس فأنا المجنون ٠ يا بني سرفانتس زور الحقيقة لاجل المال ، اشتراه دون كيشوت ٠ أنت صحفي وتعرف ما يحدث في مثل هذه الاحوال ، المال هو ٠٠٠

• • •

وبدأت أفكر بالنصر الصحفي والضجة التي سأثيرها في العالم بهذه المقابلة ، سأقطع اجازتي

وأعود الى الصحيفة فورا • سيكون العنوان الرئيسي بالاحمر : « مقابلة سرية مع سانشو بانسا » ثم أدعو الى مطاردة دون كيشوت هذه المرة والقضاء عليه ، وقد وصل بي التفكير حدا جعلني أظن أن مشكلة سانشو بانسا ستحل بفضلي ، وأن سلام الانسانيـة بات قريبا •

قام وأحضر ابريق زوفة آخر ، ومرة أخرى عاد يحدثني عما يجول في ذهني • قال لي : تريد السؤال عن دون كيشوت ووضعه الآن ؟ يا بني ••• دون كيشوت مثلي أصبح له أولاد بعضهم يقيم في البيت الابيض وبعضهم في عشرة داوونغ ستريت وبعضهم . ناطحات السحاب والقصور الفخمة ولهؤلاء الاولاد أولاد في طهران وسايغـون وتل أبيب والريـاض وأولادي أنا منتشرون كذلك في كل مكان بعضهم في هارلم وبعضهـم في مخيمات اللاجئـين وبعضهم في غابات الفيتنام وعلى أرصفة جميع موانيء وشوارع العالم •••

يا بني الحروب تقوم للقضاء على أولادي ، يحاول أولاد دون كيشوت القضاء على أولادي ، أولاد دون

كيشوت يريـــدون استغـــلال أولادي ، أولاد دون كيشوت ...

فجأة سكت صوت المسجلة التي تعيد نغم النـــاي الحزين فاربد وجه سانشوبانسا ، ثم سمعت أصوات طائرات وسيارات ودبابات ورصاص وقنابل، بعدها رأيت رجالا يهبطون من طائرات عمودية وسيارات عسكريـــة ثم يدخلون البيت ويحطمون محتوياتـــه ويتلفون المكتبـــة . كانوا يلبسون قمصانا سمراء ويضعون عـــلى قبعاتهم صلبانـــا معقوفة ونجومـــا سداسية وتيجانا عربية ونجوما كالتي يضعها الشريف في أفلام الكاوبوي الامريكية .

. . .

اقتاد الرجال سانشوبانسا بينما كان يتلهف في قلبي سؤال : « هل يوجد أحد أبناء دون كيشوت في قريتنا ؟! » .

سمعت سانشو بانسا يناديني من خـــلال قيوده والصفعات والبصاق على وجهه :

ـ يا بني لا تكن مثل سرفانتس .

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

سمفونية صوفية على
أبواب بيت دمشقي

أسوار عالية سوداء . صحراء في ليل شتوي .
انسان يبحث عن ثقب في السور . سور انسان .
انسان سور . أهلكني التجوال . هذي صخرة ، وأنا
وعل . قروني تحطمها الصخرة . تحت السور أبحث
عن ثقب باب . أين الباب ؟!!

. . .

أسوار عالية سوداء ، انسان . وأنا أبحث عن
باب . ولدتني رابعة العدوية في لحظة وجد صوفية ،

ـن أولاد أبي الشمقمق الجيـاع ، أتباع الحلاج المصلوب والسهروردي المقتول · أين الباب ؟؟!!

• • •

ـ ماذا تبغي خلف السور ؟! ماذا تحسب خلف السور ؟

ـ أعرف ما يوجد خلف السور · بيت شامي ، في الداخل ليلكة ، بحرة ماء ، وجه بكر يسبيـك ، يسقيك نبيذ الرهبان · ياسمينة ، فلة ·

ـ ماذا تبغي خلف السور ؟!

ـ في قلبي أحمل حباً ، ·· بحرا وأنا أبحث عن قاعه ··· أين الباب ؟!

• • •

وأنا قيس يطرق أبوابك يا ليلى ، يطلب جذوة أنس في ليلة عيد ثلجية ·

ـ ماذا تبغي يا عبد الله ؟!

أحمل عبر الضوء الأقدس من ذاتي الرحبة أفقا ··· دماً ··· عصفورا يبحث عن غصن ·· مأوى ·· أين الباب ؟!!

• • •

وعل ينطح صخرة · تتحطم الصخرة · بسم الله

انشق السور · ثقب ، كوة ، باب ، صوت :
ــ فلتدخل يا حب الأحباب ·
ادخل ·· حمدا لله ·

· · ·

تفزعني العتمة · « هذا سرداب · لم تصل الباب »
أين الباب ؟؟!

· · ·

أدخل من سرداب في سرداب · تعيني الظلمة ·
ــ ستصل ، ارقَ ·
··· وانفتح الباب · القلب · الذات العليا ·
الاسـم النهم · المعنى المغلـق ، المطلق · الاول ،
فالثاني ··· انصفق الباب ·

· · ·

هذا بواب ·
ــ « من أنت ؟! » ·
ــ انسان ·
ــ اخلع نعليك يا انسان ·· تطهر ·
ــ الطهر ثيابي يا رضوان ·
ــ من أنت الآن ؟!
ــ صوفي في حضرة هــذا البيت ، الوطن الطالع

كالزهرة ٠

ـ عاشق ؟؟

ـ كيف لا ٠٠ والدم في عرقي جلد يلة ٠

ـ جائع ؟

ـ كيف لا ٠٠ والارض من تحتي قتيلة ٠

ـ من أنت في آن الآن ؟؟

ـ قطب رباني ٠٠ بحر من علم جواني ، أسلك درب البيت الشامي ٠

ـ فلتدخل يا انسان ٠

ـ أدخل ٠٠ ارق ٠٠ لكن في سرداب ٠

٠ ٠ ٠

ـ اسمك ؟!

ـ كل الاسماء ٠٠ قيس ، سعد ٠٠ غسان ٠٠

ـ من أين أتيت ؟!

ـ من مكة ، من نجد ، من قدس الأقداس ٠٠

ـ من أشياخك ؟

ـ كل الأشياخ ٠

ـ هل تعرفهم عدأ ؟

ـ أعرفهم : الارض ٠ الـدم ٠ الحب ٠ الام ٠ الوطن ٠ الخصب ٠ البحر ٠ الشمس ، ال ٠٠

ـ لا تكمل يا عبد الله ··

ـ لكن يا شيخي أبحث عن باب ·

شيخي يا شيخي أين الباب ؟!!

· · ·

عتم ، خوف · ليل شتوي ·· هذا هو السرداب ·· أين الباب ؟! أين المخرج · صرت أخاف الباب المدخل ·

ـ لا تضعف يا عبد الله ·· انشاء الله قريب منك الباب ·

· · ·

شمس · وجه · هالة شعر · امرأة · رجل ، وأنا أسألك الباب ؟!

رعشة حب · رعشة خوف · صاعقة باردة · أنسام · وانفتح الباب المعنى المطلق · صدر الذات ، انهدمت أخشاب · ماتت أسوار · ضاعت أحجار · الله · الله · تفتحت الذات القلب · وجهك يا ليلى مرج بحري · قلبك يا لبنى بيت شامي · حب · ارض · خصب · كل الاقطاب الأسياد · ادخل · أسلّم · أقبّل الأيدي · الأوجه · أعرفهم ولدوني في ليلة حب صيفية · أسمع شيخي يعرفهم بي : هذا

عبد الله غيلان يبحث عن مية • ابيضّ الوجه مني ازرقّ •

ــ مما الخوف يا حب الله ؟

ــ تبهرني الرؤية •• ترهبني الحضرة •

• • •

أوغل يا انسان في قلب الانسان • أوغل في هذا البيت الشامي • في قلبــك يا لبنى ، يا امرأة بلا جسد ، ويا ذات الجسد الرباني ، أوغل ، أوغل ، أوغل ••• العلية • الديوان • المخزن ، المخدع ، الليلك ، الماء ، العطر ، الليمون ، الريحان ، الزجاج الملون ، الفل ، ليلى ، يا ليلى تهدمت الاسوار ، تفتحت الذات الاخرى • المرج السمائي • ذاتي في ذاتك • ذات • عند الافق البحري أعانق ليلى • مية • لبنى • عصفورا • حجرا • شجرة • أسدا • ثعلبا • ماء • امرأة • طفلا • أرضا • خصبا • ذاتا • أعانق • أعانق • أعانق • أعانق • أتلاشى أتلاشى • أين السور ؟!! أين السور يحفظنا ، يحفظ هذي اللحظة • يحفظ قيسا في حبك يا ليلى • بالامس عانقتك يا سعدى ، لكن المشهد أطفىء ، مات • واليوم ، اليوم سأحفظ ،

أحفظ هذي اللحظة ، هذي اللحظة ، اللحظة اللحـ ٠٠

٠ ٠ ٠

بجانبه كان ثمة مسدس ٠ سمع مــارة الشارع وسكانه دوي طلقة٠ عبر الدوي عاديا كمنبه سيارة٠ في غرفة طابق ثالث ارتمى شاب معانقا الارض ، ومعمدا اياها بدمه ٠

كان شابا ، القلب منه في العشرين ، والرأس في الخمسين ، وما يزال الدم ينزف ٠

١٩٦٩

اه يا رحلة الشتاء والصيف

١ ـ هبوط العرب :

... وأنا أهبط في قيظ الشهر السادس في اليوم الخامس محترقا تحت العتبات القدسية ، وجهي جرح مفتوح . جرحي وجه متهور . والدم هوية . قلبي بحر مغلق . البحر حب مقتول . أتجرع سم الاشياء . العالم . أبحث عن حجر . أتوسد ظل الشيطان ، وجهي ظل . ظلي صحراء . العالم بئر . الصخر أمير العالم . وأنا أهوي . أهوي لا أصل القـاع . العـالم خيط . سكيني لا تقطع ، وأنا أسقط في قلب العالم ، أبحث

عن شـيطان يأخذني عبر العتمات ، يوصلني قـاع البئر المملوء فراغاً ، الخيط بلا قاع ، وأنا أهبط هذا الخيـط ، أهوي عبـر العتمات البئرية . أبحث عن جدران البئر ، تتلامع شعرات بيضاء : هذا فلان . . هـذا فلان . . الشـعرات قرود . وأنا أهوي . . لو كلمة سع هذي الشعرة . هذا المغضوب عليه . الممسوخ في عتمة هذي البئر : يا شعرة هذا العالم . . يا ساكن هذا الجوف. كل بيارقنا لم تثمر غير القحط . الجرح . الراية أكفان يا . . . .

– أنا محطة

– يا شعرة هذا العالم أنتم محطة .

– أنا مرفأ

– يا شعرة هذا العالم أنتم مرافىء

– المحطة للنزول

– يا شعرة هذا العالم . . المرفأ للاقلاع

عن هذا المرفأ أقلع . الماء صخر آسن . . أشرعتي جبـل . .

– اتركني يا جبل الريح الساكن . . دعني يا مرفأ .

– أنت ذكي يا بحار . . تزود . . خذ أقوالا عن سير الريح . . تعلم .

أخذ كل الحكم الشعرية • الصخر ماء • أشرعتي الريح • البحر رخاء ، وأنا لم أصل القاع ، وجهي يهبط محترقا ، لكن يكفيني هبوطي •• احتراقي •• القاع بلا قاع •

٢ ـ معراج الامال :

••• وأنا أرقى عبر الانساغ الشجرية • نبع ينبع من قلب الصخر الصحراء • الصحراء بحر • البحر أفق رحب • حب يعشب العالم وردة آمال نامية وأنا أرقى عبر الدرب الأقدس • زادي الرحمن • أشرعتي الحب الساكن وجه الانسان • أبحر صوب الاوطان الأولى • وجهي حب • الحب وطن • الوطن رحم شريان • دم ، وأنا أتوضأ في الفردوس الاقدس • ها وجه نوراني • الوجه محطة ، الو ••

ـ المحطة للتزود
ـ المحطة للتزود
ـ المحطة لتغيير الزاد
ـ المحطة لتغيير الزاد
ـ ما زادك القديم ؟؟!
ـ كل الحكم الشعرية

ـ الحكم الشعرية تتقطع ، خذ هذي الحكم الرحمانية ، أين تسير ؟؟

ـ الجنة قصدي

ـ الجنة طريق ·· عما تبحث ؟

ـ اسمع ·· اسمع ·· في هذا الوجه ، الوطن المجروح المعشوق ·· ان لم تكن العاشق ·· أنت الجارح ·· أنت القاتل ، هذا بلسم ·

هذا المرفا في دمي يقتلع · الشمس شراعي · الضوء جبيني ، قصدي وطني ، وجهي وطني · يا وجها محروقا ها قد أتت العين السالمة ، البلسم · أتلاشى عبر دروب الحب · توصلني الوجه المجروح · العشب ضماد الوجه المجروح · هذا بلسم · الانسان المغروس شجرة ، ضماد · هذا بلسم · وأنا أرقى ·· أرقى ·· عشبا أشجاراً · دما أخضر ·· عشاقا كالأرماح · الأرماح تورق فيانق · هذا بلسم · أصلي :

« آه أيتها المدن المضينة التباب
لو كنت أعلم أن ضوءك هكذا
سكنتك من زمن الريش
المعلق في القباب »

ها حبة رمل • ماء تورق فينقاً • الفينق من قيظ رماد الشهر السادس • في اليـوم السابع يورق حبـا وبنادق • هذا بلسم • الفينق يزهر . يزهر وأنا نسغ في رمل الصحراء • الصحراء بحر • مرج • وطن • حبـات الرمل تثمر فيانق • الفينق يرعى عشب الماء • الحب نسغ ضماد • بلسم وجه معشوق . وأنا فينق ، وأنا فينق ، وأنا أرقى الراية حب •• أرقى •• أرقى ، لكن آه •• آه •

٣ ـ القتل عمدا :

••• وأمطرت الدنيـا حفراً وكلابا . فأصـابه الرصاص في الصدر والظهر • وفي السماء تطايرت الراية مدماة تبحث عن يد •

١٩٧٠

يا ليـل

الليل سماء تسبي هذا الوطن العالم . والصبح فراشة أنوار أبحث عنها . أرفع مرساتي علىٰ الريح تعشق هذي الأشرعة النائمة كالشحاذ على أرصفة الزمن الحاكم بحر الرملة ٠ أبحث عن آخر هذا الليل الممتد رملا صحراوي الحرقة ، أبحث عن بيرق عرس يعلن بدء الالفة في زمن الفرقة . فالعتم على الأبواب سفينة خوف ، والعاصفة صوب بيوت الناس تبحر ٠٠

ـ يا حبيبي ٠٠ يا حبيبي ٠٠ ضمني اليك ٠٠ شدني ٠٠

يا حبيبي ٠٠ يا حبيبي ، للحب طعم الموت في دمي ، و أنا أنادي ، أناديك يا بلد النخل ، و يا بلد الدوح . يا بلد الشوك . يا بلد الزيتون . للحب طعم الموت في دمي و أنا أغني ، أغنيــك يا وطن القتــل و يا وطن الوأد ، و يا زمن الموت . الموت على الأسوار و في القلب . و أنا أغني ، أبحر في ساء الجسد . فلعل الحب يبرق ع هذا الغد الآتي كالسيل ٠

– يا حبيبي ٠٠٠ يا حبيبي ٠٠٠ ســأنتظرك ٠٠ سأنتظرك ٠٠

انتظريني ٠٠ انتظريني ، و ســآتيك . و سآتيك مثلما اعتدت كل صباح ، و على حافر الريح علامة ، أتغرب من ليــل الى ليــل لكن يبقى ، يبقى و جهك ، و جهك يبقى نجمة صبح و ردية ، نخلة حب خضراء ٠

– خذني معك يا حبيبي ٠٠ يا حبيبي لا تتركني ٠٠ لا تتركني ٠٠ سأنتظرك ٠٠

و انتظريني ٠٠ انتظريني في كل نسمة ، و في كل عشبة ، و سآتيك ، و سآتيك ، آتيك كل صباح و على جنح الأمل حبــة ضوء . وسآتيك في النــوم ذكرى ،

وسآتيك محمولا على نعش ، وسآتيك خيطاً في كل كفن ٠٠

ـ يا حبيبي ٠٠ يا حبيبي ضمني اليك ٠٠ ضمني ٠٠

أضمك يا حبيبتي ٠٠ أصعد عبر سماوات الجسد ، في بحر الليل ، لا جندل يوقفني ولا أسوار ٠ الليلة عرسي والليلة آخر ليلة ، والغد !! ما الغد ؟! زورق ابحار نحو الأسوار ، وأنا أصعد ، أصعد عبر سماوات الجسد ٠ النهدان : ملائكة حب ٠ والصدر ٠٠ الصدر وطن لا يقتل أطفاله ٠٠ يدفئني هذا الصدر ٠٠ اليدان : نعمة رب يبارك أطفاله الـ ٠٠٠

ـ يا حبيبي ٠٠ يا حبيبي ٠٠ لا تغب كثيراً ٠٠

وسآتيك على هودج الليل ذكرى ليلة حب مقتولة ، فانتظريني ٠٠ انتظريني في كل رجفة عين ٠٠

ـ يا حبيبي ٠٠ يا حبيبي ٠٠ كلمني ٠٠ كلمني ٠٠

يا حبيبي ٠٠ يا حبيبي ٠٠ للكلمة طعم الموت في حلقي ، وفي صمتي أبكي ، وفي صمتي أغني ٠٠ وفي صمت أقتل ٠٠ آه يا زمن الكلمة ، ويا زمن الحب ، فمنذ البدء تموت الكلمة ، ومنذ البدء يموت الـ ٠٠

ـ يا حبيبي ٠٠ يا حبيبي ٠٠ ألا تحبني ؟؟٠

أعبد هذا الجسد النوراني ٠٠ هذا الوجه الربيعي،
أعبد هذا الصوت المجروح في ليلة . في ليلة عرسه ،
لكن ماذا أفعل . ماذا أفعل والعاصفة على الأبواب
تاكل حتى العشب اليابس ٠٠ ماذا ٠٠

ـ يا حبيبي ٠٠ يا حبيبي ٠٠ أه ٠٠ آه شدّ أكثر ٠٠
لم يبق الا الحب سفينة أمن معطوبة ٠

ـ آه ٠٠ آه ٠٠ شـــد أكثر ٠٠ أكثر ٠٠ شـــدني
أكثر يا حبيبي ٠٠ آه ٠٠

لم يبق الا الجسد راية نصر مخروقة ٠

ـ شدني أكثـــر ٠٠ أكثـــر ٠٠ أكثـــر ٠٠ آه ٠٠
أوه ٠٠ آه ٠٠

أين أنا ؟ أي سماوات تحويني اه ٠٠ أوه ٠٠ آه ٠٠
آه يا زمن الحب المقتول ، ويا زمن الطفل الموؤود ٠٠
يا زمن الرحلة بلا عودة ٠٠ آه يا زمن الـ ٠٠

ـ آه ٠٠ آه شد أكثر يا حبيبي ٠٠

٠٠ وأنا أعلو أم أهبط . وأنا أبكي أم أضحك ٠٠

هل أتركها ٠٠ هل أنا الآن معها ٠٠ هل أرحل وحدي هل ٠٠٠

ـ آه شدني يا حبيبي ٠٠ شدني ٠٠

الليلة أول ليلة ، والليلة آخر ليلة . فمنذ البدء يموت الصوت ومنذ البدء يموت الفعل ، ومنذ البدء نموت . لكن يبقى . يبقى أن يولد من رحم الصحراء نبي ، فلعل العاصفة تموت ، ولعل العشب يسقى ولعل الـ ٠٠٠

ـ يا حبيبي لا تغب كثيراً ٠٠ لا تغب ٠

أغيب ٠٠ أغيب في بحر الجسد . صحراء الجسد ، أضيع ، أنسى زمني ، وطني ، أنسى عرسي ، ماذا بقي دون أن يضيع ٠٠

ـ يا حبيبي ٠٠ يا حبيبي لا تغب كثيرا ٠٠

٠٠٠ في غمرة هذا الزمن الضائع ضاعت أشياء لا أعرفها لكن حتما من جملتها الوطن ، الانسان ٠٠ فمتى نلقاك يا طفل الفرح الضائع يا وجه الانسان الـ ٠٠

ـ يا حبيبي ٠٠ يا حبيبي ماذا على خديك ٠٠ دموع ؟! ٠ لماذا تبكي يا حبيبي ؟

أبكيك يا زمن الحرب ، و يا زمن القتل ، و يا زمن الحب الفرح المجروح • يا زمن الموت على الأســوار وفي الداخل ، يا زمن الطفل الحب المقتول ، أبكيك يا زمن القحط ، و يا زمن العجز و يا زمن الظلمــة يا زمن الصحراء و يا زمن الصحراء و يا زمن الليل •
أبكيك و أنا واقف . واقف على حدود الصبح ، أبكيك في ليلة عرسي و أنا أنتظر ، أنتظر أن يولد من رحم القحط الصحراء الصخر الليل . عشب طفل •

في الصباح ودع عروسه و أمــه وقريته الصغيرة وذهب الى الحرب •

١٩٧١

صلاة استسقاء

امنحينا نفسك يا لغــة الشعر ، يا أليفــة في زمن
الخوف ، امنحينا نفسك ، يا لغة الشعر المبصرة ،
يا حــرة في زمن الســبي الأعمى ، امنحينا نفسك ،
فالأرض على الأبواب جمر ترمَّد ٠
صوت منفرد بينه و بين نفسه :
« ذات يوم سيحكي أولادنا عن زمن كانت الأرض
فيه بقرة ميتة ٠ »
امنحينا نفسك يا لغة الأرض ، فنحن على الأبواب
فقراء ، فقراء نستجدي عرشك القدسي مطر الالفة ،

الهمينا خصبك يا لغة الشعر ، يا كبرياء في زمن الوحل ، يا نجمة صبح في هذا الزمن الليلي الساري ، يا بصر الزرقاء ويا شفة النبوة ، امنحينا برقك ٠

صوت منفرد آخر :

« ذات يوم سيحكي أولادنا عن زمن كانت الدماء فيه كالهواء ٠ »

امنحينا ضوءك يا لغة الشعر ، يا خبزا في زمن الجوع ، يا زيتاً في قنديل المطر ، امنحينا خاتمك السحري ، قلنسوتك ، زورقك كي نبحر خارج هذا الزمن الضنك ، يا لغة الشعر ، يا أليفة في زمن الخوف ٠

وصوت منفرد آخر :

« ذات يوم سيحكي أولادنا عن زمن كانت الولادة فيه قنبلة ، وكانت القنابل فيه كالحنطة ٠ »

يا لغة المطر ، يا شجراً يثمر غير الخوف . يا غيماً يمطر غير السجّيل ، يا لغة الفجر المعشب ، يا غرة ذاك الزمن العربي ويا نبوته ، يا نجمة هذا الليل الساري ، يا خيطاً أبيض في زمن الظلمة ٠ امنحينا ضوءك ، غرتك يا لغة الشعر ، يا لغة المطر ٠٠

وآخر :

« ورأيناها قتيلا في السحاب . و بكيناها في المطر
تلك التي سيعرف أولادنا أنها الثورة • »

على الشـواطىء ، ننتظر نوارس المطـر ، زادنا الياسـمين والخـوف ، وفي الأفق تبين النـوارس . فتختفي لكنها لا تقرب الشواطىء . وكلما مر سحاب نقول جاء المطر ، والمطر فيجوانح النوارس البعيدة ، يختبىء يا لغة النوارس والمطر •

« ذات يوم سيحكي أولادنا عن زمن كان الخـوف فيه كالثياب • »

على أرض نحسبها شواطئا . ننتظر تاريخا يأتي ، مطرا يهمي . لكنما الشواطىء تهرب ، وها أنت يا مطر النوارس ذكرى ، نكاد نراك عبر قوافل القتلى . مغدوراً باسم الثورة •

« ذات يوم سيحكي أولادنا عن زمن كانت الثورة فيه بضاعة مهربة ، كالحب »

يا لغة الدم النازف . يا لغة المطر الغائب . يا لغة الشعر اليابس. يا لغة الشعر المحروق، أيتها الرايات السود ، يا زمن النورس مذبوحا بجناحه ، بذرنا

البذار . لكنما الأرض لا تطلع الا نابالم ، نابالم ، نابالم • حناجر وخناجر ليلية •

« ذات يوم سيحكي أولادنا عن زمن كانت الأمطار فيه تباع فيالصيدليات، أو تهرب فيقطارات سرية • »

يا لغــة الأسى الجاف ، أيتها النهارات ، يا رائحة أوراق الزيتــون المحروق ، يا أسى غابات الصـــنوبر المحروق ، أيتها الشمس المحروقة ، يا صفار بيضـــة فاسدة ، أيتها الشمس، أيتها السوداء• يا لغة المطر ، مرباك مسافات يلعب فيها القحط والريح الغريبة ، رمادية جافة• يا لغة الشعر . يا أليفة فيزمن الخوف ، يا لغة الشعر ، امنحي أرضك خاتمك السري •

« ذات يوم سيحكي أولادنا عن زمن كان المطر فيه عجوزاً تغفو على مقاعد الحدائق العامة • »

يا مطر الصبح الشمسي . يا لغة الورد القتيلة ، يا مطر الفوضى ، مات الضرع ، جف الزرع ، قطع الفرع ، يا زمن المطر النائم في رمال الشوك وأوراق السماء ، يا جبهـــة غيب آت ، امنحنا قطرة ، قطرة ضوء ، قطرة حب ، قطرة أنس ، قطرة مطر ، قطرة ، ق ، ط ، ر ، ة • • •

« ذات يوم سيحكي أولادنا عن زمن كانت البحار فيه مستنقعات غبار وشوك • »

يا مطر الرحمن . يا من تعيد كل غريب ، يا من تغيث كل ظمآن . وتطعم كل جوعـان . وتنقـذ كل هلكان ، أعـد لنـا غريبنا ، أغث ظمأنا ، أطعمنا . أنقذنا من هلاكنا ، يا مطر الشمس ، يا مطر القرن العشرين ، يا حليب الأطفال ، ويا سردين الفقراء في بحار الملح ، يا مطر القرن العشرين ، املأ لنا آبار صحارانا . يا بحر القرن العشرين . يا مطر القرن العشرين ، يا مطر القرن العشرين اليك نتوسل وعليـك نتوكل ، وبك نستعين ، يا مطر القرن العشرين ، يا تاجاً على كل شمس ، ويا حلوة في كل عرس ، يا خاتم كل عروس ، ولعبة كل طفل ، يا مطر الشمس ، يا مطر القرن العشرين بك نعوذ ، واليك ننيب وبك نعتصم ، نتفيأ عراك التي لا تنفصم ، يا مطر القرن العشرين •

« ذات يوم سيفهم أحفادنا أسلافاً لهم ولدوا في القرن العشرين • »

يا حضرة هذا القرن العشرين ، اكتبنا في مدارج

السالكين ، باذنك الواصلين ، يا حضرة هذا القرن
العشرين، يا غيمة عطر ، يا جنة ضوء ، يا قطب فهم
نحن مريدوك ، خذ بيدنا واكشف لنا ، ارفع عنا
ضرنا ، وافتح علينا ، انر قلوبنا واهدنا سواء
سبيلنا ، بصّرنا وأبصرنا ، صبحك، مطرك يا شمس
المطر ، يا مطر القرن العشرين ٠

« ذات يوم سيحكي أولادنا عن زمن كانت الثورة
فيه عانسا تقرأ في مجلة حواء برج الجوزاء ٠ »

• • •

آمين ، آمين ، آمين ، يا مطر القرن العشرين ٠
عقب الصلاة ، كانت الصحراء تزداد نمواً
والزيتون يقطع والصنوبر يحرق والنابالم يزرع
والنورس يهرب والناس يتجمعون استعداداً لصلاة
استسقاء أخرى ، يا مطر القرن العشرين ٠

١٩٧٢

محاولات جاهدة ومشروعة لرفع اصبع صغيرة يقوم بها تلميذ جاد في مدرسة ابتدائية

١ ـ الخطـأ :

٨٥ زائد ٧٦ يساوي ١٦٢

كان هذا صوت المعلم · لكن تلميذا جادا جمع الرقمين على دفتره ، فكانت النتيجة ١٦١ · وفكر التلميذ أن يصحح خطـأ المعلم · عليه أن يرفع اصبعه مستأذنا في الكلام · ثم ليقل ما يريد · عندما ازداد الحاح فكرة رفع الاصبع على التلميذ ، شعر بخوف · احمر وجهه ، وارتجف جسمه · لن يفعل

شيئا أكثر من أن يرفع اصبعه ويقول للمعلم : ٨٥ + ٧٦ = ١٦١ وليس ١٦٢ · لكن المشكلة أن المعلم ربما يعتبر صنيع التلميذ اهانة شخصية له ، وربما اعتبر عمل التلميذ صادرا عن نية سيئة ـ مثلا : انظروا معلمنا لا يعرف الجمع ـ ثم ان تربية التلاميذ في مدارسنا لا تسمح بامكانية الاعتراض على أخطاء المعلمين الدائمة وما زال التلميذ يشعر بحاجة ماسة للتصحيح ، وفي الوقت نفسه ما زال يشعر بالخوف · الخطأ يجب أن يصحح . ليست هذه خطيئة المعلم الوحيدة في هذا الصف أو غيره ، كما أنها ليست الخطيئة الوحيدة في العالم ·

لافتـــات :

طرد الصهاينة العرب من بيوتهم ·

الرأسماليون يضطهدون العمال ، والاقطاعيون يضطهدون الفلاحين ·

الجوع يميت الآلاف كل عام في الهند ·

الزلازل قتلت الآلاف في تركيا ·

العنصريون يضطهدون السود في جنوب افريقيا وأمريكا ·

يا شرفـاء العالم ارفعوا أصابعكم ضد هـذه الاخطاء .

٢ ـ قاعدة غير مفهومة :

« المسافة تساوي السرعة مضروبة في الزمن » .

قال المعلم عبارته هذه بسرعة ودون أن يعطي أمثلة وشواهد . وعلى الباب وقف متأهبا للخروج وهو يقول : « من لم يفهـم هذه القاعدة فليرفـع اصبعه . » ورفع الاصبع ما زال مشكلة ـ من لم يفهم هذه القاعدة فليرفع اصبعه ـ صحيح أن المعلم قال هذه العبارة . لكنه قالها بطريقة أفهمت التلاميذ أنه لا يريد لاصبع أن ترتفع . هذا اذا لم يتذكر التلاميذ ما حصل لبعض رفاقهم عندما صدقوا المعلم ورفعوا أصابعهم .

« القاعدة لم أفهمها ويجب أن ارفـع اصبعي مستوضحا . » وما يزال خائفا وخجولا . فربما يضحك عليه رفاقه . ثم لماذا فهم كل رفاقه وهو وحده لم يفهم . ارتبك وعاد يرتجف . أخذ يضع يده في جيبه ثم يخرجها بعد أن يكون قد قرر نهائيا رفع اصبعه . لكنه كان يعيد يده الى جيبه بسرعة .

لم يفهم القاعدة ، وعليه أن يرفع اصبعه ليستوضح هذه القاعدة غير المفهومة ، ثم ليست هي القاعدة الوحيدة التي يقولها المعلم وتمضي دون أن تفهم ، كما أنها ليست القاعدة الوحيدة غير المفهومة في هذا العالم .

لافتـــات :

لماذا صنعتم القنبلة الذرية ؟!

لماذا تقتلون الفلسطينيين والسود والفيتناميين ؟!

ما هو الخير وما هو الشر ؟!

لماذا لا يأكل الجياع ؟!

لماذا التمييز العنصري ؟!

لماذا الاستعمار والفقر والمرض والجهل ؟!

ما الحكمة من هذا الوجود ؟!

يا شرفاء العالم ارفعوا أصابعكم مستفهمين عن هذه القواعد غير المفهومة .

.

لا بد للتلميذ من أن يرفع اصبعه مصححا الخطأ

ومستفهما عن القاعدة لكنه ما زال خائفا ، فطرق التربية في مدارس هذا العالم ـ كما تعرفون وكما تربيتم وكما تربــون أطفالكم ـ لا تعلم فضيلة شجاعة رفع الاصبع : اصبع الاحتجــاج ، اصبع التصحيح ، اصبع الاستفهام .

لافتــات :

علموا الانسان الشرف والشجاعة .
أعطوا الخبز والحرية والثقافة للجميع .
صححوا أخطاء هذا العالم .
استفهموا عن القواعد غير المفهومة في هذا العالم .
احتجوا على شرور هذا العالم .

عندما قرر التلميذ رفع اصبعه محتجا على طريقة المعلم في التعليم ، ومصححا خطأه ، ومستفهما عن القاعدة غير المفهومة ، قرع الجرس ، بينما كان ثمة موسيقى جنائزية تنبىء عن جنازة تعبر الشارع الى ... فهل من سؤال آخر !!

لافتة وهتاف :

ارفــع اصبعــك

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

متوازيات القامة المنتصبة

لافتات ونداءات :

يا عمال مصانع النسيج تابعوا اضرابكم ·

يا عمال مصانع النسيج لا تصدقوا أكاذيب أصحاب المعمل ·

نداء سريع :

يا عمال مصنع النسيج تجمعوا في ساحة المعمل الساعة العاشرة للقيام بمسيرة ·

كان قد مضى قرابة شهر على اضراب العمال ،

وكاد احتياطي النقابة والعمال من المال ينفد • تابع أنيس الصالح طريقه الى ساحة المعمل للمساهمة في المسيرة •

نداءات من أصحاب المعمل :

أيها العمال نحن على استعداد للمفاوضة •

من نشرة أخبار يوم الاضراب :

« ••• هذا وقد صرح السيد آبا ايبان بأنه على استعداد للتفاوض مع أي زعيم عربي ، وعقد صلح منفرد أو جماعي . كما صرح الجنرال دايان بأنه على استعـــداد للانسحاب من الاراضي المحتلة الا القدس والجولان » •

كان أنيس الصالح ما يزال في طريقه الى ساحة المعمل •

لافتات يكتبها العمال استعدادا للمسيرة:

لن تخدعنا محاولات أصحاب المعمل •

أيها العمال تابعوا اضرابكم حتى تنالوا حقوقكم •

لافتات مرفوعة في جميع العواصم العربية :

نطالب بالصمود حتى النصر •

نطالب بازالة العدوان •

نرفض الحلول الانهزامية وأنصاف الحلول •

وما يزال أنيس الصالح في طريقه ، بينما يصل بعض رفاقه •

راي أصحاب المعمل :

« نحن على استعداد لمساعدة العمال ، لكننا لا نستطيع رفع أجورهم لان رفع الاجور سيجبرنا على رفع ثمن السلع مما يؤدي الى ضعف القوة الشرائية للعامل . وهذا يؤدي كذلك الى تضخم مالي لا توافق الدولة عليه » •

راي العمال :

« ارتفاع أجورنا لا يؤدي الى رفع ثمن السلع الا اذا قصد أصحاب المعمل ذلك ليأخذوا بالشمال ما أعطوه باليمنى . والدولة متفقة مع أصحاب المعمل • نريد المشاركة في الارباح » •

راي السيد ايبان :

« نريد العيش بسلام مع جيراننا ، فالمنطقة تسعنا وتسعهم ونحن على استعداد للانسحاب من الاراضي المحتلة بعد صلح » •

••• ويضيف الجنرال دايان :

« الا القدس والجولان » .

رأي أصحاب الجلالة والفخامة :

« نطالب بازالة آثار العدوان » .

رأي عمال مصنع النسيج وفلاحي القرى وتلاميذ المدارس :

« نطالب بازالة آثار العدوان » .

وما يزال أنيس الصالح في طريقه الى ساحة المعمل . وعلى الارض لمح ورقة . توقف ، ونظر اليها كانت قطعة نقدية من فئة الليرة .

مداولات سرية بين أصحاب المعمل :

– نلبي بعض مطالب العمال .

– لا نعطيهم تعهدا رسميا .

– نفاوضهم على أساس شخصي ولا نعترف بالنقابة .

– نرشي بعضهم . ونوقع الخصومة بين القادة النقابيين .

مداولات في مجلس الوزراء الصهيوني :

- ننسحب من بعض الاراضي المحتلة ، ونحصل على الاعتراف ٠

- لا نلزم أنفسنا بحدود معينة ٠

- سواء ألزمنا أنفسنا بحدود معينة أم لم نفعل فاسرائيل الكبرى يجب تحقيقها ٠

مداولات سرية بين أصحاب الجلالة والفخامة :

- نوهم الناس أننا أزلنا آثار العدوان فنبقى في كراسينا ٠

- يجب التشديد على مصطلح ازالة اثار العدوان ٠

لافتات يرفعها عمال مصنع النسيج وفلاحو القرى وطلاب المدارس والثوار الفلسطينيون والفيتناميون والامريكيون اللاتينيون والسود في جنوب افريقيا وأمريكا :

لن نساوم على حقوقنا ٠

كان أنيس الصالح يفكر « ليرة ، ثمن ثلاثة كيلو خبز ، مصروف الاولاد ليومين ، ثمن علبتي سجائر بردى ، ثم هي ضائعة ، وضائعة » ٠

لافتات جديدة يرفعها العمال :

نريد حقوقنا كاملة .

حقنا من عملنا وليس من جيوب أصحاب المعمل .

حل يتقدم به أصحاب المعمل :

« نحن لا نستطيع رفع الاجور . لكننا نريد أن نكون كرماء مع العمال ، لهذا نعطيهم هدايا من جيوبنا الخاصة مئة ليرة لكل عامل في كل عيد ، وربما نوزع عليهم بعض الملابس » .

رد العمال :

« لسنا شحاذين بل نريد حقوقنا » .

السيد آبا ايبان يعيد تصريحه بأنه على استعداد للانسحاب من الاراضي المحتلة .

اقوال البسطاء من الناس :

السيد آبا ايبان لا ينسحب من بيت أبيه .

السيد آبا ايبان لا يوزع شيئا من اقطاعاته .

تصريح لسياسي غربي كبير جدا ، جدا :

اسرائيل وجدت لتبقى .

قول لفلاح فلسطيني :

وجدت لأبقى في أرضي .

لافتات جديدة يرفعها العمال :

المعمل للعمال •

لافتات يرفعها الفلسطينيون :

فلسطين للفلسطينيين •

بطاقات لاصحاب الجلالة والفخامة توزع سرا وعلنا :

نريد حلا سلميا لأزمة الشرق الاوسط •

نريد حلا سلميا لأزمة الشرق الاوسط •

نطالب بازالة آثار العدوان •

لافتات في كل الدنيا يرفعها كل الشرفاء :

كل شيء أو لا شيء •

كان أنيس الصالح يفكر :

« ليرة سيلتقطها غيري ان لم ألتقطها أنا • لكن هل ستحل مشكلتي؟ أريد أجر عملي فقط ، أريد حقي ، لا أريد أي احسانات خارجية • هل ستحل مشكلتي اذا أعطاني أصحاب العمل مئة ليرة ؟ لا أريد الا عرق جبيني » •

ووصل أنيس الصالح الى ساحة المعمل دون أن ينحني •

١٩٧٠

حكايات رحلة العمر

١ ـ ذاك النهار السعيد

ظهر ١٠/١٠/١٩٦٠ رأيت أحمد عبد الحميد ، وتكلمنا بحماسة عن سفرنا « غدا » للدراسة في الجامعة . في صباح اليوم الثاني عرفت أنه انتحر . كان أحمد أحد أصدقائي القلائل ، وربما صديقي الحقيقي الوحيد لهذا حاولت طوال السنوات الاخيرة معرفة السبب الذي دفع أحمد ليفعل ما فعل ، فتمكنت من جمع هذه الشهادات من أفواه الذين شاهدوه نهار ١٠/١٠/١٩٦٠ علّها تلقي بعض الضوء على دافع أحمد .

(صديقته منى قالت) :

« في الثالثة بعد الظهر أتى الي ، قال لي سنذهب الى البحر معا لنرى « كيف تغرق الشمس في البحر » أريته الثياب التي سآخذها معي الى دمشق • كما تعرف ، كنا متفقين أن أدرس الفيزياء ويدرس هو الفلسفة ، أعاد عليّ قوله بأن دراستنا ستكون متكاملة ، وأن الفلسفة أصبحت تعتمد على الفيزياء خاصة بين العلوم •

ثم قال مازحا : « وأنا أعتمد عليك » • قبّلني بحنان أحسسته للمرة الوحيدة بذاك الاسى • أذكر أن عينيه دمعتا عندما ضمني • قال لي : أسمعيني أسطوانة « يا حلو شو بخاف اني ضيعك » ثم قال انه شاهد شروق الشمس هذا الصباح ، وانه يحس بالسعادة في هذا النهار وانه يتوقع أننا سنعيش حياة سعيدة في دمشق ، قال لي بالحرف الواحد : « أشعر أنني طفل معمد » أجبرني على فك حقائبي ليرى محتوياتها • قال لي بأنك ستكون معنا في السيارة « غدا » ، وأنه سعيد لأنك ستدرس الطب • قبّل يدي للمرة الاولى ولاحظت أن عينيه دمعتا وقتها ، لا أكتمك أني قلت لنفسي وقتها لعلها احدى

نو باته الرو منتيكية • قال لي بأنه سعيد • ثم قال لي بأنه يحبك • مازحته قائلة : أكثر مني ؟! قال لي : أعبدك • قبَّل يدي مرة ثانية ، فارتبكت للمرة الاولى معه • قال بأنه سعيد لاننا سنكون ثلاثتنا في دمشق ، ولأنه سيسكن معك . وأنه يأمل في أن تجد صديقــة في دمشق لنذهب أربعتنــا الى الرحلات والافلام • للمرة الاولى حدثني بصراحة عن حبه السابق وقال : « لقد أفلت مني لأني تركته للزمن » ثم أقسم أنه لن يتراخى للزمن بعد اليوم . وأنه لن يدع الزمن يهزمه قال : « الزمن رهيب » قال لي بأنه سيجعل سعادتنــا دائمة . أنا وأنت وهو وبقيــة الاصدقاء . وأنه لن يضيعها أبدا • أنت تعرف حبه للفلسفة ، لهذا راح يحدثني عن الزمن والنسبية وامكانية السير بسرعة الزمن أو جعله يتوقف عند لحظة سعادة • عاد فقال : « الزمن رهيب » • كان سعيدا جدا ذاك النهــار ، وهذا ما يحيرني ••• ما زلت أحبه على الرغــم من حبي لزوجي سمير ، وبالمناسبة فقد سمعت أنك وسمير ••

(عامل مقهى بحري) :

أتى مساء ، بعد الغروب . قعــد مقابل البحر

كعادته أكثر الأماسي ، لكنه كان متأخرا ذاك المساء ٠ كان من عادته أن يأتي قبل الغروب ٠ كان يتأمل الغروب ٠ أنت تعرف ، غالبا ما كنتما تأتيان معا سألته عنك فقال لي انك تهيىء نفسك للسفر «غدا» الى دمشق وانه قد أعد حقائبه منذ الصباح ٠ أذكر أنه كان يبدو سعيدا جدا ٠ عندما أحضرت له كأس الشاي كان ينظر الى البحر كعادته ٠ سألته مازحا : بماذا تفكر ؟٠٠ أجابني : أفكر كيف يمكن ألا يضيع مني هذا البحر ، وأتذكر حادثة وقعت لي في الصغر ٠ مرة أعطاني أبي ليرة لأشتري خبزا فأضعتها ٠ ولما عدت عاقبني ، ومن يومها أقسمت ألا أضيع شيئا ٠ ثم تساءل : هل تراني سأستطيع تنفيذ قسمي ؟٠٠

(صديقنا المشترك حسين) :

مرّ عليّ حوالي التاسعة مساء ٠ قال لي بأنه سعيد بالسفر « غدا » الى الجامعة وأن مما يزيد سعادته أن منى ذاهبة معه ، وأنه سيسكن معك ، ثم قال لي بأن الامر يبدو له مثل حلم وأنه غير مصدق أن الحلم سيتحقق وأنه يخاف أن يستيقظ ، وأنه يتمنى ألا يستيقظ ، مازحته قائلا : لا تسرق أفكار الشعراء ٠ قال لي ما رأيك برحلة على

الدراجات الى خارج البلدة • كان القمر ساطعا وهي الليالي التي كان يحبها • نزلنا عن الدراجات ووقفنا نتأمل القمر كعادته في مثل هذه الليالي أخذ يرقص ويغني ، الى أن ، وحسب تعبيره ، استنفد طاقته الزائدة ، بعدها عدنا الى بيتي وشربنا شاياً ، ثم ودعني • قبّلنا بعضنا وقال لي ادرس جيدا لتكون معنا في دمشق العام القادم ، ثم قال بأنه سيراسلني ، وأننا سنرى بعضنا في العطلة الانتصافية •

(أبوه : « مزارع ») :

رأيته عادياً ذاك النهار • عندما عاد الى البيت حوالي الثانية عشرة دخل غرفته فورا ، وأخذ يقرأ ويكتب على عادته ــ حتى ولو عاد متأخرا ــ قبل أن أنام أتى اليّ وسألني : هل مرّ بك يوم يا أبي شعرت فيه أنك في منتهى السعادة ، وأنك لن تستطيع أن تسعد أكثر بعده ، هل مرّ بك يوم تمنيت فيه للزمن أن يقف عنده ؟•• قلت له : بصراحة لا ، وأعتقد أن هذا اليوم مستحيل التحقيق ، وأن الامل يبقى أكبر من أي واقع ، ابتسم وقال : تصبح على خير • في الصباح وجدناه ممددا على الارض وبجانبه بقايا أوراق محروقة ••• كتبه وثيابه ما زالت

في حقائبها لانه ـ كما تعرف كان سيأخذها معه الى دمشق « غدا » •

• • •

والآن ١٠/١٠/١٩٧٠ عندما أفكر بتلك السعادة التي كنا فيها ـ أحمد ومنى وأنا ـ نهار ١٠/١٠/١٩٦٠ ثم أفكر بالحياة والاحداث التي تلت ، حتى بتلك السعادات التي خلنا أننا عشناها أحسب نفسي بدأت أفهم لماذا فعل أحمد ما فعل نهاية ذاك النهار السعيد •

• • •

٢ ـ كل الدروب •• كل الارجل :

اعلان في صحيفة :

« وجد عمال التنظيفات في الليل جثة صاحب هذه الصورة ملقاة في أحد الشوارع الجانبية ، ولما لم يكن صاحب الصورة يحمل أية أوراق ثبوتية فيرجى من ذويه أو ممن يعرف عنه شيئا الاتصال بأحد المخافر الحكومية » •

• • •

تعليقات بعض قراء الاعلان :

رجل دين : كان رجلا طاهرا يؤدي واجباته

الدينية بانتظام ، عليه الرحمة •

صاحب خمارة : كان يسكر بسرعة فيكسر الزجاجات ، ويتخاصم مع الزبائن • أراح وارتاح •

قبطان السفينة : كان بحارا ممتازا •

صاحب مكتبة : كان يشتري كتبا كثيرة ، خاصة الكتب الفلسفية •

رجل ما : أذكر أنني رأيته مرة ، لا أذكر أين •

امرأة رصينة : كان رجلا ممتازا أحبني بشرف وعفاف •

تاجر : أراح وارتاح • كان يساوسني على القرش •

رئيس دائرة : كان موظفا فوضويا •

زعيم منظمة سياسية : كان مناضلا قدم تضحيات كثيرة ، سنطلق اسمه على احدى الخلايا •

رجل فقير : كان يحسن اليّ •

صاحب مقهى بحري : كان يجلس عندنا دائما • وكان ينهر الشحاذين دائما •

مدير مصرف : له ودائع ضخمة في مصرفنا •

صاحب أموال : من سيدفع لي ديونه ؟!

• • •

(اعلان ثان في الصفحة نفسها) :

« لاحقا باعلاننا السابق في العدد ٢٩٥٧ تاريخ ٥/١٠/١٩٦٥ من هذه الصحيفة نعلن ما يلي : لما لم يتقدم أحد لاستلام الجثة المعلن عنها ، ولما لم تصلنا أية معلومات بشأنها ، فقد اعتبرت الجثة مجهولة الهوية ، وقدمت لمشرحة جامعة دمشق » .

• • •

٣ ـ الحكاية الثالثة :

(١)

منذ عشرين عاماً تزوجت ، هي تحب زوجها ، وزوجها يحبها كذلك ، ومنذ عشرين عاما وهما وحيدان وحيدان وينتظران ، ينتظران طفلا . منذ ثمانية عشر عاماً استبشرا بالطفل الاول ، اشتريا له الألبسة والسرير وزجاجة عطر ، لكن الطفل ولد ميتا ، وما زالت الألبسة والسرير وزجاجة العطر بانتظار الطفل الذي ما تزال تأمل مجيئه كل يوم .

(٢)

منذ عشرين عاما أحب فتاة ، واتفق معها على الخطوبة ، اشترى خاتماً وأساور ذهبية وزجاجة عطر

وذهب في الموعد المتفق عليه ، لكنه فوجيء برفض الفتاة المفاجيء ، ومنذ عشرين عاماً ما يزال وحيدا وحيدأ وينتظر ، وتنتظر معه الأساور الذهبية والخاتم وزجاجة العطر عروساً ما يزال يأمل مجيئها كل يوم ·

(٣)

منذ عشرين عاما وهي وحيدة . فمنذ عشرين عاما قتل عريسها الجندي على الحدود الفلسطينية ولم يترك لها سوى ذكراه وراتب الجندي الضئيل. كانت تعيش من هذا الراتب ، وتوفر منه قليلا وكم ساعدت جيرانها من وفرها ذاك · لكنها نامت ذات ليلة واستيقظت مريضة فذهب كل وفرها وذهبت مودة الناس لها · في مرضها رأت شبح الموت أكثر من مرة · ثلاثة أيام متتاليات لم تستطع التحرك في فراشها ولم تر أحدا يناولها جرعة الدواء . وكل تفكيرها كان « اذا مت كيف سيعرفون » كيف سأدفن . وفور شفائها من مرضها ذهبت الى السوق واشترت نعشا وكفناً وزجاجة عطر · وكل ليلة . وقت النوم ، تلبس كفنها وتستلقي في نعشها واضعة على صدرها زجاجة العطر . بانتظار القادم الذي ما تزال تنتظره كل ليلة ·

فنادق الدرجة الثالثة

١ ـ الليل والنجوم والمدن :

أضواء طرطوس لا تبدو ، لكن انتشار الضوء يظهر متساميا نحو الأعلى في فرح غامر • يبدأ النثار الضوئي كثيفا ثم يضيع مع ايغاله نحو الأعلى والأعمق • عبر النثار الضوئي تبدو سلسلة أضواء قصيرة : سفينة في عرض البحر • سلسلة الأضواء تتلامع كصبية يقفزون • في الشرق تبدو الدريكيش نثاراً ضوئياً برياً مقابل نثار ضوء طرطوس البحري • نثار الضوء البري لا يتبع خطا مستقيما

في تلاشيه نحـو الأعلى ، بل يتعرج : سلسلة الجبـال غير الشط المستوي • في النهار لا تظهر الدريكيش ، لكن في الليل يرى نثار ضوئهـا • الى الجنوب تظهر طرابلس : أضواء تتماوج كنتيات يرقصن السماح • خط الضوء يتبع انحناءة الشط وتعرجات المدينة كلما كانت الظلمـة أقوى سـطعت الأنوار أكثر ، وظننت أقرب • السماء صحو • نجوم كثيفة متقاربة تتوامض كنبضات قلب تعب . وسطها درب التبانة يعبر السماء كضوء القمر على صفحة البحر في ليل خريفي • في الجنوب الشـرقي صافيتا . تمتـد من الغرب الى الشرق شـريطا من الأضـواء المتماوجـة والمتعرجة : سفينة في بحر الليل ، نجوما تعلن التصاق الأرض بالسماء في نهـاية المدى • في صدور الجبال المتقابلة تبدو أضواء بيوت الفلاحين المتفرقة كأوسمة على صدور الجرحى • في عمق المدى الشرقي تتخافت أضواء قلعة الحصن ومرمريتا كأمل صعب الوصول • على بعد مائتي متر يبدو الفندق الذي أقضي اجازتي فيه : مجموعة أضواء خافتة تحاول بتواضع وخجل اعلان وجودها بين الظلمة والنجوم وأضواء المدن • سكون ليلي في جبل مستوحد • رهبة السر وروعته •

الدنيا بساط أسـود والأضواء ثقوب نحـو الشمس المسـروقة • الليل قصـيدة حب خائف • العظمـة اللا نهائيـة للعالم لحظة السكون • النسـيم يداعب الوجه كخصلات شعر الحبيبة معيداً احساس الطفولة • أضواء بيوت الفلاحين تطفأ واحداً بعـد آخر كأمل يجهض، وفقير مل السؤال • أضواء فندقي المتواضع استسلمت كابتسامة استحالت عبوساً • أضواء المدن تزداد وضوحاً • تبدو السماء أقرب والجمال أروع • الجبل أكثر علواً والانسان صـار أكثر اقترابا من السر المقدس • قمة جبل عالية يحيط بهـا كل هـذا العالم مثل عمود يوحنا المعمدان لا شيء الا الليل في قلبه النجوم والمدن • بحر أسود تتراقص على سطحه ابتسامات أمل • الضوء أغنية حب أول • ضوء المدن نوارس تعلن وجود الجزر • الفرح العظيم للضـوء وسط الليل يعلن مكمن السر المقدس • القلب مرج ربيعي • الوجه بحر في صبح خريفي • الجسد مـاء الفرح • السـر في اللحظـة المعلقـة بين الاختبـاء والكشف ، الـ • • •

• • •

• • • وأمام هـذه العظمة اللا نهائيـة لروعـة

الضوء وسط الظلمة ، ومن أعماق الرهبة الكبرى أمام هذا السكون الليلي الشامل . فكّ الواقف على قمة الجبل عروة سرواله وأخذ يبول .

. . .

٢ ـ فنادق الدرجة الثالثة :

الفندق بناء قديم . استراحة على قمة جبل ، تذكرك بحجرة يوحنا المعمدان أعلى العمود . البناء صالة محاطة بصفوف من الغرف . مقاعد الصالة مهترئة وثمة مقعد جديد . في الوسط مدفأة ، على الرغم من أن الفصل صيف . على حائط الصالة صور ولوحات للزينة : برج ايفل . الجامع الاموي . جسر شيكاغو . معبد صيني قديم . صورة امرأة شبه عارية . تقويم . منظر طبيعي . الغرفة الأولى ، مكتب المدير ، صاحب الفندق ، فيها طاولة وكراس قديمة ، وأقلام رصاص مبرية حتى نهاياتها . ثمة سرير ينام عليه المدير . الغرفة الثانية ينزلها طالب يقول انه يدرس علم طبقات الارض ، وهو يبحث في الجبال عن مستحاثات . يبدو الطالب فرحاً كأي انسان في مقتبل العمر . يغيب كل ما قبل الظهر في الجبال ، ويبقى بعد الظهر في غرفته يقرأ . الغرفة الثالثة

فيهــا امرأة مصدورة عرفت أنهــا بغي متقــاعدة ، تستشفي في الجبــال ، تحاول أن تبــدو رصينة لكن حركاتها تفضح الماضي • في الغرفة الرابعة عجوز قال لي انه يأتي كل صيف الى هنا • كان رئيس دائرة وتقاعد • في الغرفة الخامسة عروسان يقضيان شهر العسل • يبقيان كل النهار في الحقول وكل الليل في غرفتهما • في السادسه جندي بترت ساقه ، في السابعة رجل مشبوه وأظنه مهرباً ، يهرب أسلحة من الحدود اللبنانية القريبة ، في الغرفة الثامنة أنزل أنا لأقضي اجازة ، منــذ مدة وأنا أتمنى أن أقضي اجــازة في الجبال • ثمة ثلاث غرف أخرى ينزل بها الطارئون وأحياناً تبقى فارغة • أحياناً نجتمع بعــد العشاء في الصالة و نتبادل الأحاديث • كلنا نزلاء عابرون نقضي اجازات قصيرة في هذا الفندق المتواضع الا العجوز فهو يريد قضــاء الصــيف كاملا • أحاديث الصــالة متفرقة • تعليق على صور الحائط • جمال المنطقــة حيواتنا وتجاربنا • كل منا عرف قصة الآخر • حتى الذي ينزل ليلة واحدة فقط يعرف كل شيء بسرعة • الفندق غير مريح • نزلاؤه أكثرهم فقراء ، ميزته في رخص أسعاره واطلالته على المناظر الجميلة ، أقامه

صاحب الفندق فوق قمة جبل عالية تشرف على البحر ومدن وقرى كثيرة ، لكن على الرغم من هذا ماذا تقول في فندق نزلاؤه عجوز و بغي و أبتر و مهرب ؟! صاحب الفندق يؤمن عمليات بغاء · أظنه شريكاً للمهرب · هـذه آخر ليلة لي في هـذا الفندق ، لن أقضيها في الصـالة ، مللت ثرثرات النزلاء · سأقضيها خـارج الفندق أتفرج على الليل والنجوم والمدن ·

· · ·

عندما غادر الفندق في الصباح ، كان حزين القلب وكان يداخله شعور غامض بأنه لن يقضي اجازة أخرى في هـذا الفندق أبداً ، على الرغم من رغبتـه العميقة في العودة الى الفندق . فهذا الفندق على الرغم من كل شـيء جميل وجميل ، بل ورائع ، رائع ، رائع ··

١٩٧٠

بـــوابـــات

نظر أمامـــه ، كان الشـــارع امتدادا لا نهائياً ٠ انعطف في شارع جانبي ٠ دخل دكاناً صغيراً تنـــاول الهاتف ، أدار القرص :

ـ أحمد موجود

ـ لا ٠٠ خرج منذ لحظة

ـ شكراً

أقفل الخط ٠ عاد الى الشارع اللا نهائي ، رأى على الرصيف صبيا يبيع الصحف ٠ قرأ :

دوامة المشاريع الى أين

عمليات الجبهة العسكرية

نحن خارج المفاوضات ولا حل الا بالمعركة .

نقل عينيه بين الصحف والمجلات ، قرأ بعد أن انزلقت عيناه الى أسفل صفحة : السيدة جوديث سميث مندوبة معهد التجميل . لم يتابع قراءة الاعلان . تابع طريقه . دخل سمعه صوت طائرة حربية. بدهشة الاطفال رفع رأسه ونظر الى السماء . لم ير شيئا . تذكر أن بيت عصام قريب . انعطف في شارع جانبي . وصل باب البيت . قرع الجرس . لم يجد أحداً . عاد الى الشارع الممتد امتداداً لا نهائيا . قرر ترك هذا الشارع . أحس برغبة في رؤية سعيد . اتجه وجهة منزله . في الطريق رأى رجلا يبول، بعده رأى امرأة تقتعد الأرض وقد مددت أمامها رضيعا . تذكر أخاه الرضيع وفكر بأنه مهدد بالمصير نفسه في أية لحظة . رأى فتاتين تسيران كانتا ترتديان « مكسي جوب » . تطلع اليهما . انحنت احداهما ووضعت قطعة نقدية في الصحن الموضوع جنب رأس الرضيع . رأى صبياً آخر يبيع المجلات والصحف على الرصيف . لم يتمالك نفسه ووقف مرة أخرى يقرأ :

الصهاينة يؤكدون رفضهم للانسحاب من الأراضي العربية .

رجـال المقاومـة يهاجمون أهـداف العـدو في غزة وسيناء .

مقابلة صحفية مع المناضلة أنجلا ديفس .

اشـترى صحيفة . تفرج على صـور الصـفحة الاخيرة . قرأ بعض الأخبار القصيرة سـائراً . ألقى الصحيفة في سلة أوساخ معلقة على عمود كهرباء .
واجهه شـخص يعرفه . تبـادلا التحيـة . قرر الاتصال بأماني . بحث عن دكان فيه هاتف .

ـ أماني من فضلك

ـ آسفة . غير موجودة

ـ شكراً

أعاد السماعة ، فأعاد صاحب الدكان تقوية صوت المذياع . كانت أغنية أم كلثوم الجديدة « الحب كلو » رأى الفرحـة عـلى وجـه الرجل ذي الخمسين عاماً ـ تقريباً ـ قبل أن يخرج ، دخلت فتـاة مع شـاب واشتريا علبـة « كلينكس » . مرة أخـرى صـادف

شخصاً يعرفه • تبادلا التحيــة • انعطف في الشارع الجانبي الذي يقيم فيــه ســعيد • قرع الجرس • فتحت أم سعيد :

– سعيد موجود •

– آسفة • خرج منذ الصباح ولم يعد ••

– قولي له سأل عنك علي ، سلمي لي عليه •

– الله يسلمك •• تكرم •

– شكراً ••

– مع السلامة •

على مدخل البناية سأل نفسه : أين هم الأصدقاء ؟ لماذا لا يوجد أحد في بيته ؟ لماذا هو نفسه خارج بيته ؟ عاد الى الشارع الذي يمتد امتداداً لا نهائياً • شرب كأساً من عصير الجزر • رأى سيارة اطفاء تمر معطلة صفاراتها • تبعتها ثانيــة وثالثة • مر أمــام أحــد المقاهي • فرأى عدة أشخاص يعرفهم • رأى وجوها ما مر أمام هــذا المقهى الا ورآها منكبة على طاولة اللعب • قرر الذهاب الى طارق • اتجه صوب بيته •

انعطف في شارع جانبي · مر أمام مكتبة صغيرة · رأى صحفا و مجلات معلقة على الباب ، وقف قرأ من بين العناوين :

الازمة الامريكيــة الاسرائيلية المقبلة العقبــة الاسرائيلية في طريق التسوية ·

رأى في « الاهرام » اعلانا عن « مارلبورو » ·

رأى في « النهار » اعلانا عن السفر الى رودس أثينا ·

أعجبته صيغة الاعلان واخراجه ·

ألا يبدو هذا السعر غاليا

لرحلة تستغرق

٧ أيام

رودس ـ أثينا

كلا فالسعر ليس غاليا

بحث عن السعر فلم يجده · عاد يقرأ العناوين السياسية :

روجرز : أمن اسرائيل لا يتطلب الاستيلاء على الاراضي ·

والضمانات الدوليــة أكثر أمنا من الضمانــات الجغرافية ·

سمع من المكتبة المذياع يذيع نشرة أخبار . دخلت سمعه كلمات متفرقة عن فلسطين والفيتنام ويارنغ . تابع سيره . تذكر مهى . عاد الى المكتبة . دخلها طلب اذنا باستعمال الهاتف :

ــ مهى موجودة من فضلك .

ــ لا .. من يريدها ؟

أقفل الخط ضايقته لهجة الذي رد عليه في الهاتف . قبل أن يخرج اشترى علبة حلوى صغيرة . ابتسم تذكر أن مهى ستعود الى اتهامها له بأنه طفل اذا عرفت أنه اشترى علبة حلوى . دخل سمعه صوت طائرة حربية . رفع بصره ونظر الى السماء . لم ير شيئا . على الرصيف الثاني رأى شخصا كانت تربطه به علاقة صداقة ماضية . شعر برغبة في الحديث معه . نظر الشخص اليه . تبادلا التحية . شعر بأسى . وتمنى لو كانت الصداقة تعود . شرب كأسا ثانية من عصير الجزر . فكر بأنه لو كان يدخن فربما كان تسلى . نظر الى ساعته فعرف أنه قد خرج من بيته منذ ثلاث ساعات . حاول أن يتذكر كيف قضى هذه الثلاث ساعات . كان قد اقترب من منزل طارق . صعد السلم . قرع الجرس . لم يجب أحد .

قرع مرة ثانية • لم يجب أحد • قرع مرة ثالثة ورابعة لم يجب أحد • عاد ينزل السلم • سار في الشارع يتذكر العناوين التي قرأها في الصحف • سأل نفسه لماذا لم يجد أحدا من أصدقائه في البيت • قال لنفسه : ربما هم كذلك يبحثون عن بعضهم ، وعني كذلك • كان قد عاد الى الشارع الذي بدا له امتدادا لا نهائيا تساءل لماذا نـدور على بوابات بعضنا ولا يجد أحدنا الآخر • تابع سيره وهو يحاول تذكر من بقي من أصدقائه دون أن يكون قد اتصل به أو ذهب اليه ، فلعله يجده ان قرع بابه •

حزيران ١٩٧١

[illegible]

متعب مثل قطار قديم

« فلتنسحب الجماعة » أعطى القائد أمره ، وعندما حاول الجندي حسين التحرك أحسّ ألماً ، نظر الى جسمه ، كان ثمة بقعة دم على كتفه الأيسر « سنزحف حوالي مائتي متر ثم نركض باتجاه كفر الليل » و بدأت الجماعة تستعد للانسحاب باتجاه كفر الليل لتستطيع اعادة تمركزها هناك «الانسحاب كيفي حتى كفر الليل، و هناك سننظم قوانا مرة ثانية و نتصل بالقيادة » •

ـ ما هي الحالة في المواقع الاخرى ؟

سأل أحد الجنود •

ـ سنعرف في كفر الليل ، عليكم جميعا أن تكونوا في التاسعة مساء في قيادة موقع كفر الليل ·

وبدأت الجماعة انسحابها · كانت كاملة لم تفقد أحدا من عناصرها ، أصيب منها جندي واحد بجراح في كتفه اليسرى ، لكن هذا لن يعيقه عن الانسحاب ·

• • •

كان حسين يتراجع مع أحمد عبد الحميد ، وعلى مشارف كفر الليل · تيقنا أنهما لن يستطيعاالوصول الى القرية ، مركز تجمع المنسحبين · أصابت احدى الشظايا أحمد عبد الحميد فقتلته ، وتابع حسين الجريح في كتفه اليسرى زحفه وحيدا ، لكن أصبح من المستحيل الوصول الى كفر الليل ، بعد أن رأى حسين جنود مظلات العدو ينزلون فيها ·

استلقى حسين الجريح في كتفه اليسرى يفكر بأمه واخوته ورفيقه أحمد عبد الحميد الذي قتل ويلوم نفسه لانه لم ينفذ رغبة أمه ويتزوج · كان نزيف جرحه قد وقف ، وعرف حسين أن جرحه ليس خطيرا · قرر أن يبقى مدة تحت هذه الشجرة ثم يتابع مسيره ، حتى يتجاوز كفر الليل فربما يلتقي بجندي آخر أو بقرية لم يحتلها الاعداء بعد ، فربما

يستطيع تأمين طعامه . كانت أصوات مدفعية العدو وطيرانه ما تزال تدوي في أذنيه .

. . .

نام حسين الليل تحت الشجرة ، وفي الصباح استيقظ . أشعل سيجارة وأخذ يفكر بأحداث الامس ، وما عليه أن يفعل اليوم وربما غدا . كان التراجع بالنسبة له لا يعني أكثر من أن مهمته القتالية قد انتهت ، وبالتالي انتهت الحرب ، وانتهت فترة الجندية ، لذلك أخذ يحلم بالمستقبل . « حتما سأتزوج ، وأحقق أمنية أمي بحمل أطفالي » .

. . .

نظر حسين الى جرح كتفه اليسرى ، فعرف أنها شظية « لم أشعر بها عندما أصابتني . غريب لم نر أحدا من جنود العدو » مد يده الى الارض . تناول حجرا وألقاها الى أبعد بحركة لا يعرف لماذا فعلها . نظر الى السماء بدون سبب وبشيء من البلاهة والخوف . سمع صوت أقدام . هيأ بندقيته وكمن . رأى فتاة في حوالي العشرين . برز لها . أجفلت .

ـ من أنت ؟!

ـ من كفر الليل .. عدوية ...

لم يشعر نحوها بأية مشاعر عدوانية • كانت تحمل صرة • لم يعرف ما بها لكنه تمنى أن يكون طعاما •

ـ ماذا حدث في كفر الليل ؟

ـ لقد دمروا القرية • قتل كثير من اهلها وهرب الباقون الى الجبال •

كانت تبكي وهي تروي ما حدث في كفر الليل •

ـ والعسكر ؟!

ـ هربوا كذلك ••

ـ ما معك في الصرة ؟

ـ طعام •• طعام تفضل •

وفتحت صرتها فورا ، كان جائعا حقا • أخذا يأكلان معاً •

ـ أنا اسمي حسين ••• حسين عبد اللطيف •

ـ تشرفنا •

ـ أمرونا بالتراجع الى كفر الليل •

كان يحاول الهرب من صمتها • استمر الصمت بينهما فترة • سألته بعدها :

ـ هل أنت متزوج ؟

ـ لا ٠٠٠ لكني سأتزوج عندما أعود الى قريتي ٠

ـ ماذا تشتغل في قريتك ؟

ـ فلاح ٠٠٠ أنا فلاح من الجزيرة ٠٠٠ على الفرات ٠

لا يعرف كيف لامست يده يدها ٠ كانت اليدان في الصحن عندما تلامستا ٠ وبحركة عفوية نظر الى وجهها ٠ كانت تنظر الى وجهه كذلك ٠ شعر ركأن جرح كتفه اليسرى بدأ ينزف بغزارة ٠

ـ عفوا ٠

قالها مرتبكا ٠ أنهيا الطعام ٠ أعادت ربط صرتها ٠ أشعل سيجارة ٠ ناولها سيجارة ٠ وكان واضحا من طريقة امساكها للسيجارة أنها المرة الاولى التي تدخن فيها ٠

ـ الى أين أنت ذاهبة ؟

ـ لا أعرف ٠٠٠ أنت الى أين ؟

ـ لا أعرف ٠٠٠ أريد الوصول الى قريتي ٠

ـ انهم يقتلون الاسرى والجنود المتراجعين ٠

صمتا . لم يعرف عن ماذا يسألها . قام ووقف .
بقي واقفا برهة . تحرك مسافة قصيرة . عاد وقعد .
وكان أقرب اليها من المرة السابقة . شعر باضطراب .
قام ووقف ثانية . ثم عاد وقعد ملاصقا لها . أحس
حرارة في جرحه . أحس وكأن جرحه ينزف غزيرا .
شعر وكأن وجهه أمام التنور . رأى يده على كتفها .
التقت عيونهما وكانت هادئة كنجمة . اقترب وجهه
من وجهها . التصق وجهاهما . كان لسانه قد أصبح
في فمها . أحس أنه متعب منذ دهور وأنه لا يستطيع
حمل نفسه ألتى بثقله فوقها . كانت مستلقية
تحته . صار فوقها وملتصقا بها ومرخيا فوقها كل
تعب الدنيا . امتدت يده بحركة غريزية الى ثيابها .
باعدت ما بين ساقيها شعر بها وكأنها تحاول رفع
نفسها عن الارض . أحس وكأنه يريد الغوص في
جسدها . شعر بها تتحرك تحته . طوقها . سمع
أصواتا منها . سمع تنهدات وحشرجات صادرة من
كل جزء منها . أحس سخونة شديدة . ظن أن جرحه
عاد ينزف . ألصق فمه بفمها . صارت تعلو وتهبط
وهو يعلو ويهبط متجاوبا مع ايقاع حركتها . رآها
ترتجف وكان يرتجف معها . أحسها حقل حنطة

أخضر ، وكان يغوص فيه • أحس نفسه طفلا يسبح في نهر الفرات • أحس نفسه يصطـاد في بوادي الجزيـرة للمرة الاولى • أحس نفسه يتجـول في السهوب في صبح ندي • أحس أن مطرا غزيرا يهطل على كل غابات العالم • أحس أن السماء قد التصقت بالارض • رأى البحر لاول مرة في حياته ، رأى الجنة • أحس بها تهدأ تحته • أحس أن جرح كتفه اليسرى قد صار باردا • أحس أنه في قريته •• استلقيا جنبا الى جنب كحمامتين ، وكانا يرنوان الى سماء حزيرانية صافية • شعر أنه بحاجة لدهر من هذه اللحظات• التفتا الى بعضهما• التقت عيونهما• نقلا عيونهمـا على جسديهما • رأى قطرة دم على فخذيها وثيابهـا • نظر الى بقعة الـدم على كتفه اليسرى ، أحس بتعاطف أسيان معها • سألها :

ـ هل تذهبين معي ؟

لم يسمع جوابها ، لكن الدموع كانت تنسرب من عينيها وهما ترنوان الى جرح كتفه اليسرى •

١٩٧١

١٩٧٤/١٠ – ٢٠٠٠

دار الأنـــوار للطباعة

دمشق

محمد كامل الخطيب

الأزمنة الحديثة



دار الأنوار للطباعة – دمشق

السعر : ٣٠٠ ق.س